

بنية الزمن في رواية (موت صغير)

لمحمد حسن علوان

د. سليمان سالم السناني

أستاذ الأدب الحديث المساعد

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة طيبة

مستخلص. حظيت الرواية العربية مؤخراً بنصيبٍ وافر من الدراسات النقدية، حيث عدّها البعض (ديوان العرب الجديد)، في إشارة واضحة إلى تفوقها على الشعر الذي كان ديوان العرب وفنّهم الأول، وهذه المقولة سواء اختلفنا أو اتفقنا معها تعضدها عوامل عدّة، لعل من أهمها؛ الرواج الذي يجده فن الرواية في العالم أجمع، والقضايا الجريئة التي تعالجها، والدراسات التي واكبت ذلك الرواج وساعدت عليه. ومن هنا - أيضاً - جاءت فكرة (جائزة بوكر) للرواية، التي بدأت في المملكة المتحدة في أواخر الستينات، وتفرّعت إلى جوائز عدّة، منها جائزة البوكر العربية التي أنشئت في الإمارات العربية المتحدة عام ٢٠٠٧م، وفازت بجائزتها رواية (موت صغير) لمحمد حسن علوان، وهو بالتأكيد ليس السبب الرئيس الذي دفعني لاختيار هذه الرواية موضوعاً لهذا البحث.

فقد لمست في هذا العمل الروائي - عند قراءته - حضوراً لافتاً للزمن بكل مفارقاته وتقنياته، تجلّى في بدء قصة حقيقية تتناول سيرة فيلسوف عربي، وأخرى متخيّلة لمخطوط يحكي قصة هذا الفيلسوف، والمسار الزمني لذلك المخطوط حتى وقتنا الحاضر. وقد كان هذا التداخل والتناوب بين الفصتين محور المبحث الأول في هذه الدراسة، بعد أن سبقه تمهيد عن مفهوم الزمن في الرواية، ومقدّمة عرضت أسئلة البحث المهمة والدراسات السابقة، وفي المبحث الثاني تناولت أبرز المفارقات الزمنية، برصد مواضع الاسترجاع والاستباق في الرواية، وفي المبحث الثالث تحدثت عن تقنيات زمن السرد في الرواية، التي تمثّلت في (الخلاصة، والحذف) وهما من عناصر تسريع السرد، و(المشهد) وهو أحد عناصر تعطيل زمنية السرد الحاضرة في الرواية، ثم ختمت بأبرز النتائج والتوصيات التي توصلت إليها الدراسة.

الكلمات الدالّة: بنية، الزمن، موت صغير، الرواية، محمد حسن علوان

المقدمة

تبعاً لذلك جاءت العناية بدراسة بنية الزمن في الروايات العربيّة، وأصبح مجالاً مهماً تستحقه الأعمال الروائية المتميّزة، ومنها رواية (رواية موت صغير) للروائي السعودي محمد حسن علوان، التي صدرت عن دار الساقي عام ٢٠١٦، وحازت على جائزة البوكر العربية لعام ٢٠١٧، وهو فوز يؤكد - بلا شك - فرادتها وتميّزها.

والرواية عبارة عن سيرة متخيّلة لحياة الفيلسوف العربي محيي الدين بن عربي^(١) الذي ولد في الأندلس في منتصف القرن

شهدت العقود الأخيرة اهتماماً كبيراً من الروائيين العرب بعامل الزمن في أعمالهم الروائية؛ وذلك بسبب تسارع وتيرة الحياة، التي جعلت الزمن بتحوّلاته أحد أكثر الموضوعات تشويقاً وإثارة لاهتمام القارئ، كما يمكننا القول إن الوعي بالزمن الذي ظهر عند كتاب الرواية الغربيين في القرن العشرين، وتطوّر بعد وضع أسسه النقدية على أيدي الشكلانيين الروس؛ ظهر أثره جلياً في أدبنا العربي في مرحلة الحداثة وما بعدها.

الروم، وله نحو أربعمئة كتاب ورسالة، استقرّ في دمشق وتوفي بها عام ٥٦٣هـ. (الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٥، ١، ٢٠٠٢م، دار العلم للملايين، بيروت، ج٦، ص٢٨١).

(١) محمد بن علي بن محمد ابن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، ولد عام ٥٦٠هـ في مرسية بالأندلس، فيلسوف لُقّب بالشيخ الأكبر، من أئمة المتكلمين في كل علم، قام برحلة طويلة فزار الشام ومصر والعراق والحجاز وبلاد

- المكان، الصورة، الدلالة (رواية موت صغير لمحمد حسن علوان نموذجاً)، للباحثة سميرة ردة الحارثي، نشرت في حولية كلية اللغة العربية بجرجا - جامعة الأزهر، عام ٢٠١٧، وقد بدأتها بالتعريف بالرواية والكاتب، وبمحيي الدين ابن عربي، ثم تحدّثت عن المكان في العمل الروائي، ويمكن تصنيف هذه الدراسة بأنها مكانية، وليس فيها ذكر لزمن الرواية.

- المحكي السيري وتشكلات اللغة الروائية: رواية موت صغير لمحمد حسن علوان أنموذجاً، د. بيومي محمد طاحون، نشرت في مجلة كلية الآداب - جامعة السويس، عام ٢٠١٨م، وقد اهتمت الدراسة بالرواية من حيث هي سيرة، وإفادتها من تجارب كتابة السيرة الذاتية والغيرية، كما تحدّثت عن عتبات النص (العنوان، الإهداء، الاستهلال التصديري)، وتناولت التشكيل اللغوي والوصف السردي، وأعرضت كسابقتها عن دراسة الزمن في الرواية.

التمهيد: مفهوم الزمن الروائي في النقد الحديث

للزمن أثره الفاعل في بناء النص الروائي الحديث، ويكتسب في بعض الأعمال الروائية أهمية تفوق العناصر الأخرى؛ لأن الزمن في الروايات الحديثة لم يعد دالاً فقط على زمن الحكاية بمفهومه السطحي والبسيط، بل أصبحت له دلالات أخرى سنعرفها من خلال هذا التمهيد.

بدأ التركيز على الزمن في النقد الحديث عند (الشكلانيين الروس)، حيث كان لهم سبق في إدراج مبحث الزمن في نظرية الأدب^(١)، فقد أورد الناقد الشكلاني الروسي توماشفسكي مصطلحي المتن الحكائي والمبنى الحكائي، المتن الحكائي الذي يعرض بطريقة عملية تتوافق مع الزمن الطبيعي، والمبنى الحكائي الذي يتألف من الأحداث نفسها، غير أنه يراعي نظام ظهورها في العمل، وما يتبعها من معلومات تعينها لنا^(٢)، أو "بعبارة أوضح: إن المتن الحكائي هو المتعلق بالقصة كما يُفترض أنها جرت بالواقع، والمبنى الحكائي هو القصة نفسها،

السادس الهجري، ومسيرة مخطوطه الذي كتبه قبيل وفاته، وامتدّت حكايته حتى الألفية الجديدة، وهذا يعني أن للزمن هنا الدور الأبرز بين عناصر الرواية، لذلك تمّ اختياره محوراً لهذه الدراسة، التي ستسعين بالمنهج التحليلي الوصفي في تتبّع مفارقات الزمن وتقنياته في هذا العمل، ومدى تأثيرها في تطييع السرد وتسريعه، وربط أجزاء الرواية من خلال تقنيتي الاسترجاع والاستباق.

وسأحاول في هذه الدراسة الإجابة عن أسئلة البحث المهمة: هل كان وعي الكاتب بالزمن حاضراً؟ وهل أجاد في التعبير عن هذا الوعي؟ وأين ظهرت مواطن الحاجة إلى استخدام المفارقات والتقنيات الزمنية؟ وهل استطاعت تحقيق الهدف منها عند استخدامها؟ وهل أثر التصوف في زمن الرواية ومفارقتها؟ وغيرها من الأسئلة التي أمل أن تكون إجابتها في مواطنها حاضرةً ووافية.

وسينقسم البحث إلى تمهيد يلي الضوء على تطوّر مفهوم الزمن في الرواية في النقد الحديث، وثلاثة مباحث، المبحث الأول يُعني بترتيب الزمن في الرواية من خلال (التداخل والتناوب)، والمبحث الثاني يتناول أبرز المفارقات الزمنية في الرواية (الاسترجاع بنوعيه الداخلي والخارجي، والاستباق)، والمبحث الثالث يهتمّ بأهم تقنيات زمن السرد في الرواية (الخلاصة، الحذف، المشهد)، ثم سأختم بأبرز النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة.

الدراسات السابقة:

حظي نتاج محمد حسن علوان الروائي بكثير من الدراسات، ومن خلال بحثي عن الدراسات التي تناولت هذه الرواية، وجدت الدراسات التالية:

- الخطاب الصوفي في رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان، د. منال عبد العزيز العيسى، ونشرت في مجلة جذور الصادرة عن النادي الأدبي الثقافي بجدة عام ٢٠١٧م، وركّزت الدراسة على عتبة العناوين، والمكان، والشخصيات، والراوي والتبئير، ولم تتناول بنية الزمن مطلقاً.

(٢) انظر: اللغة الثانية (في إشكاليات المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي)، فاضل ثامر، ط١، ١٩٩٤م، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص١٨٥، ١٨٦.

(١) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ط١، ١٩٩٠م، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص١٠٧.

السرد الأدبي من حيث مستويات إعداده الجمالي، عن غيره من أنواع السرد الأخرى. وقد أدرك هذا الأخير بأن السرد الأدبي، مثله في ذلك مثل السرد الشفوي أو الفيلمي، لا يمكن أن يستهلك، أي أن يحين، إلا داخل زمن القراءة، ومن ثم فإن الزمنية السردية يمكن وصفها بأنها شرطية أو أدائية لأن السرد يتم إنتاجه، كغيره من الأشياء، داخل الزمن^(٦).

هذه المفهوم المتطور الذي جاء به جينيت دفع ناقداً آخر إلى جعل الزمن أكثر رحابةً وسعةً، فالزمن عند أ.أ. مندلاو "يتبدى في كل فن، في إيقاعات الجاز القلقة بسبب سرعة تواترها وتوقفها، وفي تحرير النبرة من تركيب المقطع في الموسيقى الحديثة، وهو حاضر في بحث الشعراء عن إيقاعات أكثر حرية من الأنماط المقفلة نسبية للأوزان والمقاطع التقليدية. وهناك فنانون حاولوا أن ينقلوا انطباع مرور الزمن في الرسوم، أي عملية الحركة نفسها لا مجرد حركة متوقفة. ولكن هذا الاهتمام بالزمن أشد ما نلمسه في الرواية التي تظل مع التوجه الصحيح أكثر الأشكال الأدبية مرونةً وأشدّها إثارة"^(٧).

أما النقاد العرب فقد تأثروا بالمفهوم الحديث للزمن السردية عند جينيت وغيره، يقول سعيد يقطين، وهو أكثر النقاد العرب تأثراً بالنظريات الغربية عن الزمن: "يظهر لنا الأول في زمن المادة الحكائية. وكل مادة حكائية ذات بداية ونهاية. إنها تجري في زمن، سواء كان هذا الزمن مسجلاً أو غير مسجل كرونولوجياً أو تاريخياً. ونقصد بزمن الخطاب تجليات تزمين زمن القصة وتمفصلاته، وفق منظور خطابي متميز، يفرضه النوع، ودور الكاتب في عملية تخطيط الزمن، أي إعطاء زمن القصة بُعداً متميزاً وخاصاً. أما زمن النص فيبدو لنا في كونه مرتبطاً بزمن القراءة، في علاقة ذلك بتزمين زمن الخطاب في النص، أي بإنتاجية النص في محيط سوسيو - لساني معين"^(٨).

ولكن بالطريقة التي تُعرض علينا على المستوى الفني^(١). هذا التقسيم دفع بالفيلسوف الفرنسي بول ريكور إلى وصف القصة بأنها "أفعال وتجارب قام بها أو خضع لها عدد معلوم من الناس، سواء كانوا حقيقيين أم خياليين. وهؤلاء الناس يُقدّمون إما في مواقف متغيرة أو وإما عبر ردة فعلهم تجاه مثل هذا التغيير"^(٢).

جاء بعد ذلك الناقد الفرنسي تزفيتان تودوروف، فبسّط ما استقر عند المدرسة الشكلانية، حين قسم الزمن في السرد إلى قسمين: زمن القصة وزمن الخطاب، "فزمن الخطاب، هو بمعنى من المعاني، زمن خطي، في حين أن زمن القصة هو زمن متعدد الأبعاد، ففي القصة يمكن لأحداث كثيرة أن تجري في آن واحد، لكن الخطاب ملزم بأن يرتبها ترتيباً متتالياً يأتي الواحد منها بعد الآخر، وكأن الأمر يتعلق بإسقاط شكل هندسي معقد على خطٍ مستقيم"^(٣).

أما جبرار جينيت فقد أفاد ممن سبقوه، "إذ تناول الزمن الداخلي التخيلي في الرواية بوصفها الفترة الزمنية التي تجري فيها أحداث ومدة الرواية، وطريقة ترتيب الأحداث، وتزامنهما، ووضع الراوي بالنسبة لوقوع الأحداث، وتتابع الفصول إلى غير ذلك من محتويات الأزمنة الداخلية، وطرق توزيعها على مستوى النص الروائي بنيةً وتشكياً جمالياً"^(٤).

وقد اكتسب هذا التحليل أهمية كبرى في دراسة الزمن الروائي بعد ذلك؛ لأن جينيت "انتهى فيه إلى نتيجة تجعل لهذا التحليل مغزى وليس مجرد جهد عبثي يمتد في الفراغ المطلق بلا معنى، بل يصب آخر الأمر في نتائج تلقي ضوءاً كاشفاً على العمل الذي يتعرض طول الوقت لتحليله"^(٥).

كما أن "الثنائية الزمنية التي تكشف لنا عن التعارض بين زمن القصة وزمن الحكي يمكن اعتبارها، مع جنيت، أهم ما يميز

(١) بنية النص السردية من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحداني، ط١، ١٩٩١م، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص٢١.

(٢) الزمان والسرد (الحبكة والسرد التاريخي) الجزء الأول، ت: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ط١، ٢٠٠٦م، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، ص٢٣٦.

(٣) طرائق تحليل السرد الأدبي، رولان بارت وآخرون، ط١، ١٩٩٢م، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ص٥٥.

(٤) بنية الزمن في رواية ١٩١٩، دراسة في تقنيات السرد، د. عبد الباسط سلامة هيكل، جامعة الأزهر، مجلة قطاع كليات اللغة العربية والشعب المناظر لها، مجلد ١١، عدد ١، ٢٠١٧، ص١٤٣٩.

(٥) نظرية الرواية (دراسة لمنهاج النقد الأدبي في معالجة فن القصة)، د. السيد إبراهيم، ط١، ١٩٩٨م، دار فباء للطباعة والنشر، القاهرة، ص١١٣.

(٦) بنية الشكل الروائي، ص١١٧.

(٧) الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، مراجعة: إحسان عباس، ط١، ١٩٩٧م، دار صادر، بيروت، ص١٧.

(٨) تحليل الخطاب الروائي (الزمن - السرد - التبيين)، ط٣، ١٩٩٧، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص٨٩.

المخطوط بقوله "هذا كوخ مسنم في أعلاه، إذا اضطجعت فيه لأنام اضطجعت على ميل لفرط ضيقه، وإذا وقفت خنقني دخان النار الذي يتجمّع في سنامه ويحجب سقفه، وإذا خرجت منه بدت السماء من أمامي كأنها قطع ساقط يتعامد مع الأرض تماماً حتى أوشك لو مشيت باتجاهها أن أصطدم بها"^(٣).

هذه البداية التي سبقت بداية قصة حياة ابن عربي الحقيقية، بداية حياة متخيلة لمخطوط تناقلته الأيدي حتى وصل إلينا في العصر الحديث، فالسارد هنا يحكي حكاييتين، كل حكاية منهما تبدأ بولادة، حياة المخطوط الذي دونت به سيرة ابن عربي، وحياة ابن عربي نفسه، المخطوط ولد في جبال أذربيجان البعيدة، حيث ألقى صاحبه عصا الترحال الطويل والمضني؛ ليكتبه هناك في شرق الأرض، بينما حياة الفيلسوف بدأت في المغرب، وهذه المفارقات مقصودة من قبل السارد، ففي حين لم يختر مكان بداية قصة ابن عربي الحقيقية - وليس له ذلك بطبيعة الحال - اختار بعناية فائقة مكان ولادة المخطوط المتخيل، لقصة فيلسوف صوفي ولد في المغرب، وتوفي في المشرق، بينما أشرقت قصته في مخطوط من المشرق، وظلت مشرقة رغم محاولات تغييرها أثناء الأحداث الجسام التي مرت بها الأمة، تلك الأحداث التي تعمّد السارد ذكرها، وكأن المخطوط كان شاهداً عليها.

يصف بداية كتابة المخطوط في الرواية، فيقول: "أوبت إلى كوشي وأشعلت المصباح وجلست أكتب ما لا يملك كتابته غيري ولا يعرف شأنه مثلي: سيرة الولي الذي اختاره الله لما اختاره وأمره بما أمره. كتبتها تحت ضوء المصباح الذي لا يكذب. حتى إذا اختلف الناس في أمري وجدوا ما يحتجون به في شأني. بسم الله الرحمن الرحيم. قال السالك محيي الدين ابن عربي .."^(٤).

ينتقل السارد بعد ذلك إلى قصة ابن عربي الحقيقية، يتحدث فيها عن ولادته، وعن دور فاطمة القابلة الطيبة التي تولت أمر العناية به بعد ولادته، فتعلق قلبه بها وأصبحت أمه الروحية

وتقول سيزا قاسم عن دراسة الأدب من خلال مفهوم الزمن: "في دراستنا لطبيعة الأدب من زاوية الزمن نعلم على هذا التعريف فنسمي الأول الزمن النفسي أو الزمن الداخلي، والثاني الزمن الطبيعي أو الخارجي، ولا شك أن هذين المفهومين يمثلان بُعدي البناء الروائي في هيكله الزمني"^(١).

أما حميد لحداني فيلخص مفهوم السرد بقوله "يقوم الحكيم عامة على دعامتين أساسيتين:

أولاهما: أن يحتوي على قصة ما، تضم أحداثاً معينة.

وثانيهما: أن يُعيّن الطريقة التي تُحكى بها تلك القصة، وتُسمى هذه الطريقة سرداً"^(٢).

نستج ما سبق أن الزمن في السرد وجد عناية فائقة من الدارسين في العقود الماضية، فتعددت استعمالاته، وتتنوع زوايا النظر إليه في العمل الروائي، بيد أنها اتفقت على أهميته خاصة مع وعي الكُتّاب به وبضرورة استثماره في السرد؛ لتتال أعمالهم به قوة تحتاجها، وينال القارئ - بفضل هذا الاستثمار - إثارةً ينشدها، وهو ما أحاول رصده في رواية (موت صغير)، للروائي محمد حسن علوان التي ستكون محور هذه الدراسة.

المبحث الأول: الترتيب الزمني في الرواية

لعب الزمن وتداخلاته الدور الأبرز في تشكيل بنية الرواية، ويمكننا رصد هذا التداخل أو اللعبة الزمنية - إن صح لنا القول - منذ البداية، فأول ما يطالعنا منها بعد اجتياز عتبة العنوان؛ (مكانٌ وتاريخ)، المكان: أذربيجان، التاريخ ٦١٠هـ/٢١٢م، وكان السارد من خلال هذا التاريخ الذي يجيء - زمنياً - قبل أقل من عقدين من وفاة الفيلسوف محيي الدين بن عربي، صاحب الحكاية والشخصية المحورية في الرواية؛ ينبهنا إلى أن هذه بداية تدوين مخطوط يسرد حياة ابن عربي، سيلازمنا مساره منذ البداية وحتى النهاية، هذا المخطوط سيميز بأمرين: وقوعه قبل كل سفرٍ جديد من أسفار الحكاية، والخط الثقيل الذي كُتب به.

في هذه البداية المؤرخة يحكي لنا السارد قصة ذهاب ابن عربي وانعزاله في كوخ في أذربيجان لكتابة (سيرته الذاتية)، يبدأ حكاية

(٣) موت صغير، محمد حسن علوان، ط١، ٢٠١٦، دار الساقي، بيروت، ص٧.

(٤) موت صغير، ص١٠.

(١) بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، ٢٠٠٤، هيئة الكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ص٦٧.

(٢) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص٤٥.

قام إلى الصندوق وحمله بسهولة ووضع بين يدي. أمرته أن يفتحه ففتحه وأخرج مما فيه الكتاب الذي لم يفارقي يوماً منذ مات سيدنا. رحل معي الكتاب حيثما رحلت وحلّ حيثما حللت، ناولني الكتاب فضممته إلى صدري قليلاً ثم ناولته إياه وقلت:

-إلا هذا الكتاب يا ولدي، أبقيه لديك واحفظه كما تحفظ عينك التي في محرك، وأوص به أولادك من بعدك^(٢).

من لوحة المخطوط هذه بدأ (التناوب) بين القصتين، والمقصود به أن كل قصة مستقلة تماماً عن الأخرى، ومختلفة عنها.

بدأ بعد ذلك في سرد حياة ابن عربي في إشبيلية، حيث عمل والده كاتباً عند واليها، مما مكّنه من إلحاق ابنه محيي الدين في حلقة عميد فقهاء المدينة، ثم اختار له الشيخ يوسف الكومي في جامع القصبية، بعد قدومه من فاس، ومعه بدأت رحلة تصوّف ابن عربي، حين رافقه في الخلوات، في جبل المنتيار.

عاد السارد بعد نهاية السفر الثاني، إلى مرحلة جديدة في قصة المخطوط، حيث بقي في حلب بعد وفاة ابن سودكين، إلى عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، فقد أن أوان انتقاله إلى مكان آخر خشية وصول جيش هولوكو، الذي أسقط الخلافة العباسية في بغداد قبل عام، وأخذت المدن تسقط في طريقه مدينة تلو أخرى، فنقل طاهر بن سودكين المخطوط إلى ضريح الشيخ في دمشق خشية ضياعه، يحكي ابنه ذلك الانتقال ويقول "دخلنا معا وأبي يحمل معه الصندوق الجميل وقف أمام الضريح المغطى بالجص وسلّم على الشيخ الأكبر وراحت أمي وسمية تدعوان بهمس لا أسمعه. وسلّمْتُ بدوري على الشيخ الذي رافقه جدي سودكين سنوات طويلة على الطريق. ثم قام أبي وقصد خادم الضريح في ركنٍ منزوٍ يقرأ القرآن. سلّم عليه ثم جلس بين يديه وقال:

- هذا كتاب لشيخنا الأكبر بخط يده أوصاني به والدي وهو على فراش الموت أن أحفظه كما أحفظ عيني التي في

بعد ذلك "انتهى برزخي الأول في رمضان عندما شعرت أمي بآلام الوضع. اعتصرت يداها طرفي الفراش وابتهل فمها إلى الله أن يجعل مولودها ذكراً ومخاضه سهلاً... غشي على أمي فور ولادتي فلم يتسنّ لفاطمة أن تضعني على صدرها كما يفعلون، فغسلتني وكفلتني وراحت تمسح على وجهي كما تفعل الأمهات فتعلّق قلبي بها التعلّق الأول"^(١).

يروى بعدها وفي ست لوحات^(٢) طفولة ابن عربي التي قضاه في مرسية، وعلاقة والده الوثيقة بملكها ابن مردنيش، الذي أثار تحالفه مع الفرنجة غضب الموحدين، فحاصروا مملكته حصاراً خانقاً أدى إلى استسلام الملك وسقوط مرسية، ولم يغفل السارد عن تعليم محيي الدين الذي حرص والده عليه غاية الحرص، ثم يختم تلك اللوحات برحيل عائلة ابن عربي - بعد استسلام المدينة - إلى إشبيلية، وهي الرحلة الأولى لمحيي الدين بن عربي خارج مرسية، ومنها بدأت أسفاره التي لم تتوقف حتى توفاه الله في دمشق.

عاد السارد بعدها في اللوحة التي حملت الرقم (٨) إلى رحلة المخطوط، حيث استقر في حلب عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م (بعد وفاة ابن عربي بثماني سنوات)، عند اسماعيل بن سودكين أخلص تلاميذ ابن عربي ومريديه وأقربهم إليه، الذي يصف عنايته بالمخطوط، ثم يوصي ابنه طاهر بحفظه بعد وفاته "لم أقلق على طاهر قط. وهو على انشغاله بتجارته وشؤون دنياه ظل باراً بي لاسيما بعد وفاة سيدنا قبل ثماني سنوات. انتابني الضعف والمرض وما زلت كلما أخذتني عليه حسرة أتذكر أن الطريق طريق الله. فإذا كان الله الذي يختار فلماذا العبد يحار؟

-أجبنني يا بني، ماذا تفعل بكتبي؟

-أطال الله عمرك يا أبي. سأفعل بها ما توصيني به.

-خذها جميعاً إلى مدرسة الفردوس واجعلها وقفاً على طلبه العلم.

-كما تشاء.

- واجلب هذا الصندوق الأعلى ..

(٢) موت صغير، ص ٥٤، ٥٥.

(١) السابق، ص ١٣، ١٤.

(٢) تتكون الرواية من مائة لوحة واثنى عشر سفرأ، تقدمت للوحة رقم (١) فيها على السفر الأول، ثم حوى كل سفر قرابة ثمان لوحات، تحكي اللوحة الأخيرة في كل سفر قصة المخطوط.

محجري. وإني لا أعرف مكاناً أكثر أماناً له من ضريح صاحبه" (١).

انتقل السارد بعدها إلى حياة محيي الدين بن عربي، وكأنه يوازن بين حياتين، بين طفولة المخطوط حيث العناية والحرص، وطفولة ابن عربي التي نال فيها ذات الرعاية والاهتمام، وهذا نهج مكنه من وضع قصة المخطوط في مكانها المناسب بعد كل سفر من أسفار الحكاية، وهنا تبرز "احترافية الكاتب السري الذي بجسه الأدبي يتحسس توزيع الحدث، وتوزيع الزمن من خلاله" (٢).

وفي السفر الثالث شب ابن عربي عن الطوق، وبدأ رحلته القصيرة مع اللهو أثناء تردده برفقة صديقه الحريري على منزل فريديك النصراني، حيث فتن بكتب الرومان واليونان، وأصبح نديماً له، يشرب النبيذ ويهوى الغناء والرقص ويقدم أياماً في مزرعة فريديك وهو على تلك الحال "مرّ اثنا عشر يوماً لم تطأ قدمي فيها إشبيلية وأهلي يظنونني معتزلاً في المنتيار مع شيخ ما. يذهب الحريري ويعود حاملاً أخباري المزيفة لأهلي فيحملونه طعاماً لذيذاً يعده سلوم لتلاميذ وشيوخ معتزلين في المنتيار فيأكلها ندامى وراقصون في بهشية فريديك" (٣).

إلا أن لهو ذلك في مزرعة فريديك أسلمه وهو في حالة سُكر إلى مقبرة مكث فيها أربعة أيام سماها بعد خروجه منها بالجدبة الصوفية، وأصبح بها ولياً كما كان يقول: "صمت أبي لحظة ثم أدار رأسه يمنة ويسرة وهو يبحث في فضاء الحجرة عما يعينه على ضبط أعصابه. زفر زفيراً شديداً ثم قال - يا بني أفق مما أنت فيه ولا تسدر في غتك. أيّ وليّ هذا الذي عمره اثنان وعشرون سنة ويقضي ليله سكراناً مع القيان والغانيات؟

- لقد قدر الله لي أن أسكر وألهو كي تحقّ عليّ الجدبة وتصدق متى التوبة.

- هكذا؟ بكل بساطة؟ نسكر كي نصبح أولياء؟

لم أجب عن سؤال أبي الذي اختلط فيه سخطٌ وسخرية" (٤).
اختلفت حياة ابن عربي بعد هذه الحادثة، أصبح كاتباً عن الخليفة، وزوجاً لمريم بنت عبدون، التي ولدت له زينب، انتقل بعدها الخليفة على فاس، وعاد ابن عربي مرة أخرى إلى المقابر، وهناك التقى بالكومي الذي أخبره بأنه وتده الأول (٥)، وأن وتده الثاني في أفريقية.

بعد هذه التجاذبات والمفارقات في حياة ابن عربي، انتقل السارد إلى حكاية المخطوط، وأكمل المواءمة بين حال الشيخ ومخطوطه، فالمخطوط عانى كذلك من الفوضى التي أحدثها غزو التتار، حتى أصبح في خطر ولا بد من نقله إلى مكان آمن، كان هذا عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وهذا حوار يستأذن فيه القائم على العناية بالمخطوط القاضي ابن الزكي بالخروج بالمخطوط من دمشق؛ خوفاً عليه من حالة الفوضى التي عمّت البلاد:

" - سأخرج من دمشق.

- تخرج من دمشق؟ وهل تعرف بلاداً غيرها يا عماء؟ وأين ستذهب؟

- إلى الكرك يا ولدي. أبناء عمومتي هناك

- ويعتنون بك؟

الله الذي أخرجني من العدم. إنما أستأذنك لأخذ معي ما في التربة من كتب ورسائل لعلي أجد لها حرزاً آمناً في الكرك. فإني لا آمن أن يقتحم الأتقياء التربة ويخربوا ما فيها" (٦).

ثم يبدأ السفر الرابع بذهاب ابن عربي إلى بجاية في أفريقية؛ بحثاً عن وتده الثاني، بيد أن رحلته تلك لا تسفر عن نتيجة، وعندما عاد إلى إشبيلية وجد أمه نور قد ماتت، ثم لحق بها والده المريض بعد أيام من عودته، فقرر الاستجابة لطلب الخليفة بأن يلحق به في مراكش، ليصبح كاتب السر عنده - بعد أن رفض في بداية الأمر - دفعه إلى ذلك حرصه على إيجاد وتده الثاني، وخلو إشبيلية من مغريات البقاء بها "لا يمكن أن يرسل الخليفة في طلبي وهو يضمّر لي شراً. لو شاء لأمر

(٥) الأوتاد: هم أربعة رجال منازلهم على منازل الأربعة أركان من العالم، شرق وغرب وشمال وجنوب (التعريفات، أبو الحسن الجرجاني، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط٢، ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت ص٤٣).

(٦) موت صغير، ص١٨٦.

(١) السابق، ص١٠١.

(٢) في نظرية الرواية، د. عبد الملك مرتاض، ط١، ديسمبر ١٩٩٨م، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص١٩٢.

(٣) موت صغير، ص١٤٢.

(٤) السابق، ص١٥٥.

مريم وزينب وبدر إلى بجاية، يرافقهم أيضاً الحصار الذي ظن ابن عربي أنه وتده الثاني، بسبب الرؤيا التي رآها في مرسية قبل قدومه إلى مراكش "طائرٌ يخرج من عرش الله يأمرني بالذهاب إلى مكة بصحبة رجلٍ من أهل مراكش"^(٥)، ومما زاد في يقين ابن عربي أنه هو؛ بحث الحصار عن الأندلسي الذي رأى تلك الرؤيا حتى اهتدى إليه.

وعند وصولهم إلى بجاية فضّلت مريم أن تبقى هي وزينب عند أهلها، ويرحل ابن عربي برفقة بدر والحصار على مركب من بجاية إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة بعد وصولهم بيومين، وهناك التقى ابن عربي بصديقه الحريري وشقيقه الخياط، الذي أفعده المرض وقام على تطيبه ابن عربي حتى شفي، وعندما شفي توفي ابن الحصار فحزن ابن عربي على رفيق رحلته، ومن ظن أنه وتده الثاني، وتكتمل المفارقة عندما أخبره الخياط أنه وتده الثاني " غاص وجهي بين جانب صدره وفرأشه، وابتلعت في حلقي غصة هائلة من الحسرة والمهانة. ظلّ الخياط يهمس في أذني بكلماتٍ وأنا أسمع كثيراً وأعي قليلاً حتى قال:

- أنا الوريث يا أبا زينب.

بت واقفاً وكأنما نكزني نصلّ حادّ في خاصرتي وصحت به:

- ماذا!؟!

ابتسم الخياط ملء فمه وقال:

- أنا وتذك الثاني"^(٦).

أما المخطوط الذي تعودنا أن نراه بحال تماثل حال صاحبه، فقد استقر به المقام هذه المرة في سمرقند، جلبته إليها فتوحات القان الأعظم تيمور من حماة، يعرض السارد قصته هناك عام ٨٠٤هـ/٤٠١م، عن طريق صاحب مصنع للورق، يزور مدرسة ليعرف حاجتها من الورق، ويجد المخطوط ضمن عدد هائل من الكتب، تكّست في مجلس الأستاذ الذي يحث على تلاميذه على تدوين تلك المخطوطات النفيسة، حتى تعاد كتابتها من جديد "خلفتهم ورائي وقد بدأ ذهني بالفعل يحسب الأرباح المتوقعة من هذه المدرسة فقط ... وقبل أن أغادر

الوالي أن يرسلني إليه مقيداً في الأصفاد. ولأي شيء أبقى في إشبيلية التي لم يعد لي فيها أهلٌ ولا علمٌ ولا وتد؟ أستطيع أن أحمل أختي معي فلا أضطر للعودة إليها مرةً أخرى. في مراكش شيوخٌ لم ألتق بهم وكتبٌ لم أقرأها ووتدٌ لا أدري متى سيكشف لي عن سرّه"^(١).

هناك في مراكش التقى بالسبتي وخاب أمله في أن يكون وتده الثاني، كما خاب بالغوث أبي مدين في بجاية قبل قدومه إلى مراكش، وكان يظن أحدهما الوند الثاني الذي بشره الكومي - وتده الأول - به، وفي مراكش انضم إلى درسه الحبشي بدر، وأصبح رفيقه وأحب تلاميذه إليه بعد ذلك، ثم عاد برفقته إلى الأندلس لتشييع الفيلسوف ابن رشد في قرطبة، وباع البيت الذي عاش فيه طفولته في مرسية، وبذلك باتت عودته إلى الأندلس مرةً أخرى مستحيلة "جلث في أنحاء البيت فوجدت إصلاحه سيكلف مالاً. وكان من المستحيل أن أفكر في العودة إلى الأندلس بأسرها بعد أن صارت كبشاً ينهشه الفرنجة من الشمال والبرتغاليون من الغرب والموحدون من الجنوب والموريقيون من الشرق"^(٢).

عاد السارد بعد هذا الاستقرار في حياة ابن عربي، إلى حكاية المخطوط حيث استقر في الكرك عام ٧٠٨هـ/١٣٠٩م، وهو استقرار عبّر عنه بقوله "هدأت العاصفة أخيراً وكنت أظنّها لا تهدأ"^(٣).

هذا الاستقرار دفع بأبي الفداء أن يطلب من الملك الناصر أن يمنحه المخطوط، حين وجده مهملاً في المكتبة "أشرت إلى الكتاب الذي كان بين يديّ قبل دخوله وقلت له:

- إن لم يكن لكم حاجة بهذا الكتاب فإني أود أن آخذه معي إلى حماة، وإن كانت ... قاطعني بعصبية ونفاد صبر ولوّح بيده خارجاً من المكان وهو يقول:

- هل هذا وقته يا أبو الفداء! خذه ... خذ ما شئت .."^(٤).

يبدأ السفر الخامس في قصة ابن عربي باختفاء الملك، والتضييق على ابن عربي من قبل الخليفة الجديد، ورحيله برفقة

(٤) موت صغير، ص ٢٤٥.

(٥) السابق، ص ٢٥٧.

(٦) السابق، ص ٢٨٦.

(١) السابق، ص ٢٠٠.

(٢) السابق، ص ٢٣٧.

(٣) السابق، ص ٢٤٠.

المكان تناهى لسلمي الأستاذ يأمر تلميذه:

- هذا الكتاب سجله في قائمتك أنت يا جلال لمؤلفه محيي الدين محمد بن عربي الحاتمي الأندلسي. ورد إلينا من فتوحات القان الأعظم لمدينة حماة عام ٨٠٣ للهجرة النبوية الشريفة^(١).

ثم يبدأ السفر السادس برحلة ابن عربي برفقة بدر من سيناء إلى مكة، وما عاناه في تلك الرحلة من مصاعب، وقيامه بأداء فريضة الحج، ثم قيامه بإرسال بدر إلى بجاية للعودة بزوجته مريم وابنته زينب، ثم يلتقي بزاهر الأصفهاني ويلزمه ويستقي من علمه، لكنه يدرك بحاسته التي أنضجتها السنوات أنه ليس وتده الثالث "تصرف بي زاهر مثل وتد ولكن مقامي معه صرف عني ذلك الأمل. شيء لا أعرفه ولا أستطيع أن أشرحه. ولكن ربما أن وتدين في جبتي حتى الآن أكسباني القدرة على شم الوتدين الباقيين!"^(٢).

عادت مريم برفقة بدر على هودج مغربي جميل، لكن زينب عادت في تابوت، فقد ماتت في طريق العودة، وهذه الوفاة المفاجئة أحدثت شرخاً في علاقة ابن عربي بمريم، التي ما لبثت أن طلبت الطلاق وعادت إلى أهلها في بجاية.

انصرف ابن عربي بعدها إلى درسه وتلاميذه، وإلى درس فخر النساء أخت الأصفهاني، التي سمع عن علمها واستأذن من أخيها ليجلس عندها للدرس، وهناك التقى بنظام، التي دخلت البيت وقلب ابن عربي في آن واحد "تلك نظام، عين الشمس والبهاء، ابنة الشيخ زاهر. تقرأ على أبيها وعمتها كتباً لم أقرأها، وكتباً قرأتها واشتهيت أن أعيد قراءتها"^(٣).

أخذت نظام موقعها في قلب ابن عربي، مع توالي الدروس في بيت فخر النساء، حتى أصبح يراقبها في مجيئها وذهابها، ولا يغيب طيفها عن مخيلته "فأنصب طيفها المتخيل أمامي وأظن أحدثه طيلة الليلة بأشواق ليلة بعد ليلة حتى وجدتني أخيراً أشتري رزمة أوراق من تاجر عراقي جلبها من الموصل يقول إنها تحفظ المداد فوقها فلا يتسرب الخط وكتبت ما ضج في النفس وما ضاقت به غرف القلب من شعر أسميته

ترجمان الأشواق"^(٤).

كان هذا الحب غمامةً تقياً ظلّالها ابن عربي حيناً، ولما أراد استدامتها استعصت عليه، وهذا ما سيرد في قصة ابن عربي في السفر السابع، أما السادس فقد خُتم بما يناسبه من قصة المخطوط، الذي آل إلى أبناء القان الأعظم تيمور، وحين استضافهم السلطان العثماني محمد بايزيد بك أهده إياه عرفانا وشكراً على استقباله لهم في (أماسيا) منقاهم الجديد بعد هروبهم من سطوة أخيه شاه رخ في سمرقند عام ٨١١هـ/١٤٠٩م، "وأما السلطان برأسه راضياً وابتسم. ونظر جهة أخي الأخير وكأنه يستعجل قدومه ليغادر مجلسه. فقدمته سريعاً فاقترب يتبعه أربعة عبيد يحملون صندوقاً ضخماً حتى وضعوه بين يدي السلطان. فقال:

- تواليف الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين بن عربي الأندلسي يا مولاي السلطان"^(٥).

في السفر السابع تقدم ابن عربي لخطبة نظام ابنة زاهر، وظن أنها ستوافق خاصةً بعد أن لمس قبولاً من أبيها جعله يتمادي في أحلامه؛ تخيلها زوجةً تشاركه الكتابة والقراءة والتأليف، بيد أن خيالاته تلك ذهبت سدىً حين سألها عن تأخرها في الردّ وأجابته:

"- إن كان حبك لي قد بلغ تمامه فما حاجتك لنكاحي إن لم يكن ثمة متسع لزيادة؟

ثم التفتت جهتي وقالت وهي تحديق في عيني بحدة:

- ... وإن كان لم يبلغ تمامه فلا حاجة لي بنكاح ذي حبٍ منقوص.

أخافتني نظرتها الحادة فتهدج صوتي حتى صار أقرب لللكاء"^(٦).

لم يطب لابن عربي مقام في مكة بعدها، فعزم على الرحيل عنها بعد أداء فريضة الحج، فرحل مع رفيقه بدر إلى بلاد الشام، واستقر هناك "مضت أيامي على قدر من السكينة والرضا كنت في أشد الحاجة إليهما. وأشرقت الشمس يوماً بعد آخر وأنا على أمل وسعادة. وجدت في الخانقاه رفقةً طيبة

(١) موت صغير، ص ٢٩٢.

(٢) السابق، ص ٣٠٥.

(٣) السابق، ص ٣٠٥.

(٤) السابق، ص ٣١٤.

(٥) موت صغير، ص ٣٤٠.

(٦) السابق، ص ٣٥١.

سنوات. حمنا في بلاد الله أنا وبدر بلا هدف. خرجنا من دمشق إلى حلب وحماة والموصل والرها وماردين وعدنا إلى دمشق مرةً أخرى وخرجنا منها" (٣).

بعد ذلك رحل إلى القاهرة، وهناك سُجن بتهم تتعلق بمعتقداته وتصفوفه، ومكث في السجن إلى أن شفع له رجل غريب لا يعرفه، وطلب منه أن يرحل إلى بغداد لأن وتده الثالث بانتظاره هناك "أطرقْتُ صامتاً لا أدري أسأله من يكون فيكون جهلي به إهانةً له، أم أشكر له وأودّعه، تركت مسار الحديث له وقد أخذ بزمامه فوراً وقال:

- ترحل إلى بغداد الآن يا ولدي.
- ولماذا بغداد؟
- لأن وتذك الثالث ينتظرك هناك.
- وتدي؟ وكيف تعرف وتدي؟
- أعرفه حق المعرفة.
- ومن تكون أنت؟

ابتسم ابتسامة واسعة وأطال النظر في وجهي قبل أن يجيب:

- أنا كنت وتذك الثاني يا بني.
 - وتدي الثاني؟ ماذا تقول؟ الخياط هو وتدي الثاني" (٤).
- أدعى ذلك الرجل بأن الخياط أصبح وتده الثاني بعد موته، وأنه اضطر إلى الخروج من قبره لإخراجه من سجنه؛ لأن الخياط مشلول طريح الفراش، ثم استأذن ليعود إلى قبره؛ هذه القصة من خيالات المتصوفة؛ فالميت أكثر عجزاً من المشلول، وإن كان قيام المشلول من فراشه مستحيلاً، فنهوض الميت من قبره أكثر استحالة، هذه المفاجأة أصابت ابن عربي بالذهول وعاد إلى أصحابه ففرحوا بعودته فرحاً عظيماً، ووجد عندهم مريداً جديداً اسمه (سودكين)، سيرحل معه هو وبدر إلى بغداد، ويلازمه حتى وفاته.

وفي بغداد انشرح صدره فور وصوله، وقارنها بالمدن التي آوته "كنت على يقين أن نهايتي معها لن تكون كبقية البلاد الأخرى التي طردتني في الأندلس والمغرب ومكة والشام ومصر. قال الموحدون لا دروس لك. والأيوبيون أودعوني

أنست بقربهم. نقضي الليل في ذكرٍ وسهر. والصبح في دروسٍ وعلوم" (١).

لم يكتر ذلك الصفاء سوى رسالة وصلت لابن عربي من زاهر الأصفهاني، يلومه فيها على التشبيب بابنته نظام في ديوان ترجمان الأشواق، فقد أصبح هذا الديوان الذي ترك ابن عربي نسخاً منه عند الوراقين حديث الناس في مكة، وبسبب الغمز واللمز الذي طال الأصفهاني وابنته نظام قررا الرحيل إلى مكان لا يعرفهما فيه أحد.

انتقل السارد بعد هذه الرسالة التي أثارته حزن ابن عربي وأبكته، إلى قصة المخطوط، وهو هذه المرة في استانبول سنة ١٠٢٦هـ/١٦١٧م، حيث تدل القصة التي ترد على لسان القائم على المكتبة أن حدثاً جليلاً سيحدث، وأن المخطوط في خطر في ظل وجود سلطان متهور "غرقت في شؤون المكتبة حتى صرت أنام فيها طيلة الأيام الأخيرة. انقطعت عن كل ما يدور خارجها وأصبحت لا أسعى لشيء إلا إفراغها كاملة قبل انتهاء المدة المحددة لأحافظ على عملي. خلت المكتبة أخيرة من الكتب وأصبحت فضاء واسعة وفسحاً في انتظار الأثاث الجديد. أصبح للصوت فيها صدي حاد لخوائها. قطع ممزقة من الأوراق والخيوط ملقاة على الأرض تحركها الرياح التي تتسرب من النوافذ. تأملت المكان الذي قضيت فيه تسع سنوات كاملة حفظت فيها موضع كل كتاب منها وقد صار على هذه الصفة فدمعت عيني" (٢).

ترك الكاتب قصة المخطوط معلقةً عند خبر عزل السلطان مصطفى، بفتوى من شيخ الإسلام زكريا زاده، كما ترك قصة ابن عربي مع رسالة زاهر قبلها، ثم بدأ السفر الثامن بابن عربي وهو يجذُ ويجتهد في شرح ديوان ترجمان الأشواق لينتهي منه في تسعة أيام؛ من أجل تبرئة ساحته وساحة نظام، ثم يرسل نسخاً إلى مكة وحلب وبغداد والقاهرة وفاس وقرطبة، ويمنح النساخ أذنأً بنسخها بلا مقابل بأي لغة يريدون.

وبعد أن قام بعمله ذلك تكفيراً عن ذنبه الذي لم يتعمده، ضاق به المكان وقرر الرحيل ليتحرر من همومه وأشجانه "لم أعلم أن قراري العشوائي بالرحيل فتح علي تيهاً استمر ثلاث

(٣) السابق، ص ٣٨٥.

(٤) السابق، ص ٤٠٢.

(١) السابق، ص ٣٧٠.

(٢) موت صغير، ص ٣٨٠.

الأبيض الروسي ... كل الهدايا ... كادت أن تزيع نفسها لو لم أزحها بنفسي ليحل محلها هذا الكتاب"^(٤).

وفي السفر التاسع رحل ابن عربي إلى ملطية بحثاً عن وتده الرابع والأخير، وفي حلب قبل وصوله إلى ملطية تزوج امرأة شهيد اسمها فاطمة، ثم استقر معها في ملطية وأنجب منها ابنه عماد الدين، الذي سمّاه على اسم زوجها الشهيد.

بعد هذا الاستقرار في حياة ابن عربي، عاد السارد إلى المخطوط الذي استقرّ في دمشق عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥، وكان يمرّ بفترة عصيبة أثناء قصف القوات الفرنسية لدمشق، مما دفع بأبي حاتم القائم على رعاية الضريح، إلى إخراج المخطوط مع كتب ابن عربي من دمشق إلى حماة خوفاً عليها "انتهت الحضرة سريعاً. سلّمنا على بعضنا واستأذنتهم. هرعت إلى الحجرة القدسية. أولجت المفتاح في ثقب بابها وأدرته مرتين وفتحته وأغلقتة من خلفي. جلّت بعيني في أرجاء الكتب المطبوعة والمنسوخة وتناولت منها أربعة. أخرجت قطع القماش التي أضّمخها بالمسك لتعطير الضريح في العيد ولففت بها الكتب الأربعة وأحكمت ربطها. خرجت من الحجرة وأغلقتها بإحكام ثم اتجهت جهة الباب. إلى بيت فاروق. كان قد أكمل إخراج حاجياته ووضعها جميعاً فوق عربة يجزها حمار.

- فاروق. هل لك أن تحمل هذه الأمانة معك إلى حماة؟

تناول مني الكتب وهو يقول بإخلاص:

- بالطبع يا أبا حاتم. لمن تريدني أن أوصلها؟

- إلى من يحفظها يا فاروق. أياً كان"^(٥).

ولأن أيام الصفاء لا تدوم أصيب ابن عربي في السفر العاشر بنازلةٍ ربما أراد السارد أن يجعل القصف الذي أصاب دمشق توطئةً لها، بعد أن غاب التناسب عن قصة المخطوط والأحداث التي سبقتها في السفر التاسع، وتلك النازلة كانت عودة الشهيد عماد الدين زوج فاطمة، أو بالأحرى من ظنّه الناس شهيداً وهو حيٌّ يرزق "يبتلي الله أوليائه ليمتحن قلوبهم

السجن. والحلبيون استأثروا من ديواني. ومكة أقلت أبوابها امام قلبي في منتصف العشق"^(١).

وبعد عام اعتاد في بغداد ما كان يهجه، فأصبح يشعر بالوحدة، وعاد القلق إلى قلبه من جديد، وظل على تلك الحال سنوات إلى أن أخبره بدر بجزارة ستخرج من المسجد ولا بد أن يشارك في تشييعها، كانت تلك جنازة الشيخ زاهر الأصفهاني، سار في الجنازة وبكى على الشيخ، ثم بحث عن نظام حتى وجدها في رباط للزاهدات وقد نذرت نفسها للصيام ورعاية الأيتام، وسألها بعد أن قدم تعازيه بموت الشيخ وأخته فخر النساء، ولمس منها قبولاً وحباً:

"- فلم ترفضين الزواج مني؟

مدّت يدها. أجل مدّت يدها ونحن في طريق يمرّ منه ناسٌ ومست ترقوتي. صغرت ابتسامتها وازدادت عيناها اتساعاً وقالت وهي تنظر إلى حيث تجول بيدها في عنقي:

- لأنني لا أملك ذلك يا حبيبي.

- لماذا؟

- لأنني وتلك الثالث ..

- ...

- والأوتاد يتزوجون الأرض يا حبيبي"^(٢).

أخرسته تلك المفاجأة، فمسحت بكفّها على وجهه وقالت:

"... وفي ملطية وتلك الرابع والأخير، فأقبل عليه يثب قلبك"^(٣).

كما انتهت قصة ابن عربي الحقيقية في هذا السفر عند باب رباط، بدأت قصة المخطوط المتخيلة عند رباط في دمشق عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، وهذا من التناسب الذي حرص عليه السارد وأشرت إليه في المواضع السابقة التي تتقاطع فيها قصة ابن عربي مع قصة المخطوط.

أصبح المخطوط بحوزة الأمير عبد القادر الجزائري، الذي يقول عنه "دخلت المكتبة وأنا أبحث عن مكان يليق بكتاب مسطور بيد الشيخ الأكبر نفسه. قصدت على الفور ركن الهدايا. أزحت وسام جوقة الشرف الفرنسي. وسام النسرة

(١) موت صغير، ص ٤١٠.

(٢) السابق، ص ٤٢٩.

(٣) موت صغير، ص ٤٢٩.

(٤) السابق، ص ٤٣٤.

(٥) السابق، ص ٤٩١، ٤٩٢.

انتقل السارد بعد أن اكتملت أوتاد ابن عربي وثبت قلبه كما في العقيدة الصوفية، إلى المخطوط في حماة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، الملاذ الآمن الذي تحوّل إلى جسيم لا يطاق بعد أحداث مجزرتها الشهيرة، فقد احترقت المدينة وكادت كتب ابن عربي أن تحترق بنيران تلك المواجهات، لولا قيام رجل -لم يُذكر اسمه ولم تُعرف كنيته - بتهريبها من مكتبة الجامع النوري إلى من يحفظها من الضياع، قبل أن يلتقم فوهة مسدسه على ضفاف نهر بردى "طرقت عدة أبواب ومشيت في عدة ممرات حتى وقفت أخيراً بين يدي مدير المتحف الحربي. نظر إلي من الفراغ بين نظارتيه وجبينه دون أن يقوم من كرسيه. وضعت على سطح مكتبه تسعة كتب وقلت له:

- إذا كنت مدير متحف في تكية صوفية فستدرك قيمة هذه الكتب وحدك.

حملت حقيبتي الفارغة وغادرت مكتبه وهو يقلّب في الكتب. ناداني فلم ألتفت^(٤).

يصل السارد أخيراً إلى قصة الكوخ المسّم في أذربيجان، الذي اعتزل فيه ابن عربي لكتابة المخطوط، يصل إليه في اللوحة رقم ٩٤ بعد أن تركنا قصة العزلة في اللوحة رقم ١، غير أن اللوحة هنا ليس بالخط العريض كما كانت في اللوحة الأولى؛ لأنها امتداد لحياته بعد تثبيت قلبه بالأوتاد الأربعة، خرج بعد التثبيت في خلوة استمرت عاماً كاملاً، وعاد منها وقد نحل عوده، وطال شعره واسمر لونه "دخلت ملطية وعلى ظهري متاعي كله ملفوفاً في حصيرة. لمحت وجوهاً أعرفها. نظروا إلي ولم يتبينوا ملامحي وقد طال شعري ونحل عودي واسمرت ملامحي"^(٥).

لهذا الجزء في بداية السفر الحادي عشر أهمية كبرى، ذلك أن الكاتب أحسن استغلال تلك الخلوة في التداخل الذي حدث بين القصتين، ليمنحها الواقعية وينهي التناوب البحث الذي امتد بين قصتين مختلفين في أكثر من خمسمائة وثلاثين صفحة من الرواية.

للتقوى، وقد ابتلاني بظهور زوج زوجتي بعد أن ظننا قد مات!"^(١).

تنازل ابن عربي عن فاطمة لزوجها الشهيد، على أن يقيما في ملطية حتى يبلغ ابنهما عماد الدين الحلم، وخطب ابن عربي صفيّة زوجة صديقه إسحاق بعد وفاته، جاءت موافقتها سريعة، لأن زوجها أوصاها أن تقبل بابن عربي إذا خطبها من بعده، ولأن ابنها صدر الدين نشأ في بيت ابن عربي وترى مع ابنه عماد الدين، عوّضته صفيّة عن فاطمة التي كان يراها (سهلة التعويض)، وانجبت له سعد الدين، وخففت عنه حزنه بفقد صديقه إسحاق الذي مرض ومات سريعاً، وبدر الذي أصيب بالجذام ونقل إلى حارة المجذومين خارج مالطية، ولم يلبث أن توفي.

لم يبق معه سوى سودكين، الذي دلّه - دون أن يقصد - على وتده الرابع "أصبح البيت صاخباً. أنا وصفيّة وثلاثة أطفال وعنزتان. إذا جاءني ضيف لم أعرف أين أجلسه، وإن بات عندي لم أعرف أين أبيته. فطلبت من سودكين أن يبحث لي عن بيت آخر بثلاث حجرات على الأقل. وظل يطوف أياماً في حواري ملطية بحثاً عن هذا البيت فلم يجد. ولكنه وجد شيئاً آخر.

- الدرويش الذي زارنا في الخانقاه يا سيدنا، أتذكره؟

- نعم، ما شأنه؟

- يقتعد مكاناً في السوق يقرأ فيه الكف بلا أجر إلا قوتاً"^(٢).

ذهب معه ابن عربي بعد صلاة العصر، ووجد درويشاً سبق وأن رآه في الخانقاه ولم يحفل به، ودار بينهما حوار طويل، أخبره في نهايته (شمس التبريزي) أنه وتده الرابع.

"- هلا قرأت لي كفي وعلمت ما في قلبي؟

- ما في قلبك إلا الله يا محيي

ثم وضع يده على كتفي وقال:

- ... أنا وتدك الرابع"^(٣).

(٤) موت صغير، ص ٥٤٤، ٥٤٥.

(٥) السابق، ص ٥٤٩.

(١) موت صغير، ص ٤٩٨.

(٢) السابق، ص ٥٣٤، ٥٣٥.

(٣) السابق، ص ٥٣٧.

سهولة. وبوسعي أيضاً أن أطلب من خبير الخطوط مقارنة الخط بمخطوطات أصلية مكتوبة بيد الشيخ الأكبر. ولكني أيضاً لا أريد أن أبدو بلهاء وأنا أسافر من باريس إلى بيروت بسبب مخطوطة معروضة للبيع على الإنترنت ثم أنقد صاحبها ألفي دولار من أجل قطعة مزيفة!

- أنا أسف يا مدام. من حقد أن تشكّي في صحة المخطوط ولكني بكل صراحة وصدق لا أعرف شيئاً عن المخطوطات. كل ما أعرفه أن أخي كان يقتني عدداً منها ويقضي وقتاً طويلاً في فحصها ونسخها. ولا أظنه احتفظ بهذه المخطوطة بالذات في صندوقٍ مقفلٍ إلا لقيمتها العالية^(٣).

انتهت هنا قصة المخطوط، وانتقل بنا السارد في السفر الأخير إلى نهاية حياة ابن عربي، فقد ضُيق عليه وعلى رفاقه، وقد بلغ حينها السبعين من عمره، وما عاد يقدر على القيام بالتدريس كما تعود منه طلابه، ومسه الفقر أيضاً "ولم يتوقف الشقاء على ذهاب صحتي وموت رفقتي بل امتد إلى جيبني فمستني الفقر. أوقف بنو الزكي عطاءهم في محاولة للضغط عليّ بعد أن كثرت الشكاوى ضدّي"^(٤)، سوء الحال هذا أجبره على العمل أجيراً في بساتين غوطة دمشق ليكسب قوت يومه، دون أن يعلم أحد من أهله أو طلابه بذلك، وكان يعلم أن المال سيعود إذا تراجع عن أفكاره، واعتذر عن كتبه، ولكنه لم يفعل. ظل على هذا الحال عدّة أشهر، وأثناء ذهابه في يوم من الأيام إلى عمله المُجهَد أصيب في رأسه بسبب نزاع -لا علاقة له به - بين العسكر ومجموعة من المتجمهرين دفاعاً عن العزّ بن عبد السلام، ولما وصل إلى البستان شعر بالدماء ترتفع في رأسه، ولم يلبث أن سقط ومات.

وصف السارد تلك النهاية على لسان ابن عربي، وكأنه يعيش في البرزخ ويعي ما حوله، "يحملني الناس. يرتفع النحيب. أميّز أصوات تلاميذي. أسمع قرع نعالهم. تتضاءل الأصوات وتبتعد مع انثيال التراب. تنقطع نهائياً إلا من صرخة حارقةٍ أطلقها سودكين بلا وعي"^(٥).

رحل ابن عربي بعد وصوله من خلوته بأيام من ملطية إلى دمشق، وأقام في بيت خصص فيه حجرة لسودكين، الذي تزوج بعد ذلك من فتاة يتيمة أنجب منها ابنه طاهر، الذي أوصاه عند وفاته بعد ذلك بالمخطوط، وكان أول من تولاه بالرعاية والحفظ، ثم لم يلبث الوَدّ الذي أحيط به ابن عربي عند قدومه إلى دمشق أن يتحوّل إلى عدااء من قبل أصحاب المدارس الفقهية التي انتشرت في ذلك الحين وناصبت المتصوفة العدااء، ذهب ابن عربي إلى القاضي ابن زكي يشكو إليه المضايقات التي يلقاها من الناس، فلم ينصفه، وبعد حين استدعاه الملك المعظم كي يخبره بان قاضي القضاة نقل إليه شكاوى الفقهاء من كتابه فصوص الحكم، وتحذيرهم من خطورته وضلاله، عندها قال ابن عربي للملك بعد أن دافع عن نفسه قدر استطاعته "اعلم أيها الملك المعظم أنني هنا في دمشق ليس من أجلك ولا كي أستظلّ بظلك، فأرض الله واسعة وظل الله أعظم. ولكني كبرْتُ ودنت منيتي وقد شئت أن يكون موتي في مهبط عيسى عليه السلام وموطئ قدميه الشريفتين. فإن ضيقت عليّ خرجت من ضيقٍ إلى سعة حتى يبذل الله أمراً بأمر"^(١).

زاره الملك المعظم بعد تلك الحادثة وبصحبه قاضي القضاة تطبيقاً لخاطره في الظاهر، وللتأكد من صحة دخول الجراد إلى كل مكان في دمشق عدا الخانقاه "أكملت درسي كالمعتاد وكلما نظرت جهتهما وجدتهما يحسنان الإصغاء ويبيدان الاهتمام، ففرت أنهما هنا ليظنبا لي خاطري بعد ما حدث معي في مجلس الملك آخر مرّة"^(٢).

وفي اللوحة الأخيرة للمخطوط، نجده وقد وصل إلى بيروت مع لاجئٍ سوري عام ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، حيث تنتظره امرأة مسيحية زوجها مسلم، كانت أطروحتها للدكتوراه عن الرمز والنزعة العدمية في فكر ابن عربي من جامعة السوربون، جاءت من باريس من أجل شراء المخطوط "كنت أعلم أن بوسعي التحقق من المخطوط بسهولة وأنا في باريس. زملائي في قسم المخطوطات سيجرون الاختبارات الكربونية اللازمة بكل

(١) موت صغير، ص ٥٦٥، ٥٦٦.

(٢) السابق، ص ٥٦٨.

(٣) السابق، ص ٥٧٦.

(٤) السابق، ص ٥٨٧.

(٥) موت صغير، ص ٥٩١.

لنفسه أحد "أعطاني الله برزخين: برزخ قبل ولادتي وآخر بعد مماتي. في الأول رأيت أمي وهي تلدني وفي الثاني رأيت ابني وهو يدفني. رأيت أبي يضحك مستبشراً بذكره الذكر وزوجتي تبكي مفعوجةً في زوجها المسن. رأيت فتيل دولة المرابطين يطفئه الموحّدون في مرسية قبل ولادتي، ورأيت التتر يدكّنون بغداد دكاً دكاً بعد مماتي. رأيت الأولياء يستبشرون بمولد سلطان العارفين والفقهاء يكبرون لهلاك إمام المتزندقين. رأيت كل هذا بكشف الله الأعم ونوره الأسنى في سنوات قليلة من برزخين"^(٤)، جاء الاسترجاع الخاطف هنا في سياق رصد المفارقة بين الحالين، استبشار ونصر في الولادة، وهزيمة وبكاء في لحظة الموت.

ومن الاسترجاع في الرواية، الذكرى التي استعادها إسماعيل بن سودكين في مرضه الأخير، حيث استعاد اللقاء الأول بشيخه ابن عربي في القاهرة، من خلال وصف ابنه طاهر "كنت قوياً مثله تماماً عندما التقيت الشيخ الأكبر في القاهرة. دخل علينا الخانقاه الذي كان مثل حديقة جافة أطلّ عليها الربيع"^(٥)، ثم يعود إلى واقعه وقد عاد ضعيفاً بعد قوّة، ومريضاً بعد صحة وعافية "ها هو القويّ الأمين يتهادى بين يدي ابنه محمولاً مثل شوالٍ من طحين. إذا ما ذهبّت القوة بمرور السنين فما ذهبّت أمانتي لشيخي ومولاي"^(٦).

ومنها أيضاً مقارنة ابن عربي بين الحال التي أصبح عليها والده عند الخليفة في إشبيلية، وتلك التي كان عليها عند ابن مردنيش، حيث كان وزيراً عنده وأحد المقربين منه، ومع ذلك فوظيفة كاتب عند خليفة الموحدين وعدو ابن مردنيش تستحق القناعة والرضا "إنها حال رغبة لرجلٍ كان قبل سنةٍ قضي لئاليه الضيقة في مرسية متخيلاً نفسه مصلوباً إلى جوار ابن مردنيش في قسبة المدينة. فعلى أي شيء سيعترض؟ كاتبٌ عند خليفة يحكم المغرب ونصف الأندلس خيرٌ من وزير عند

وبهذا يصل الكاتب إلى نهاية هذه الرواية التي بدأت بالتداخل بين القستين، ثم جاء التناوب في جلِّ صفحاتها، إلى أن عاد إلى التداخل قبل النهاية بقليل، وأكمل بعدها كل قصة حتى أوصلها إلى نهايتها.

المبحث الثاني: المفارقات الزمنية في الرواية

استخدم الكاتب في هذه الرواية مفارقات سردية عدّة، ساعدت في ربط أزمنة الحكاية، وكانت مجيئها في القصة الحقيقية أو السيرة الذاتية لابن عربي، أكثر من مجيئها في قصة المخطوط، لأن القصة امتدت على مساحة كبيرة من الرواية، بينما ظهرت قصة المخطوط مختزلة، مهمتها الإخبار عن حال المخطوط، ورصد زمانه ومكانه، ومن أهم تلك المفارقات، ما يلي:

١- **الاسترجاع:** وهو عبارة عن "مفارقة زمنية تعيدنا إلى الماضي بالنسبة للحظة الراهنة، استعادة لواقعة أو وقائع حدث قبل اللحظة الراهنة"^(٧)، وتسمى عند بعض الباحثين تقنية الفلاش باك "الاسترجاع، أو الفلاش باك (flash black)، مصطلحٌ روائيٌ حديث، يعني الرجوع بالذاكرة إلى الوراء البعيد أو القريب"^(٨).

وتكاد لا تخلو رواية من هذه المفارقة الزمنية، فهي من وسائل ربط الأحداث ببعضها، كما أنها تساعد على ملء الثغرات التي نتجت من الحذف أو الإغفال في السرد^(٩)، "ويرى جينت أن الاسترجاع نشأ من الملاحم القديمة، ولكنه تطوّر بتطور الفنون السردية، فانقل إلى الرواية الحديثة، بحيث أصبح يمثل أهم المصادر الأساسية للكتابة الروائية... وتأتي أهمية الاسترجاع كونها تقنية تتمحور حول تجربة الذات، وتعادل وفقاً للمصطلح النفسي ما يسمى بالاستبطان أو التأمل الباطني"^(١٠).

وهي الأساس الذي بدأ به السارد هذه الرواية، لأن ابن عربي وهو يكتب سيرته هناك في جبال أذربيجان، في خلوة لا يرى فيها سوى الراعي الأذري، عاد إلى أبعد من زمن وجوده في هذه الدنيا، فقد زعم أنه - على غير ما ألفه الناس - رأى نفسه في برزخه قبل الولادة، يقول عن هذه المزية التي لم يدعيها

(٤) الزمن في الرواية العربية، مها الفصراوي، ٢٠٠٢م، أطروحة دكتوراه من الجامعة الأردنية، عمان، ص ١٨٦.

(٥) موت صغير، ص ١٣.

(٦) السابق، ص ٥٢.

(٧) السابق، ص ٥٣.

(٨) المصطلح السرد، جيرالد برنس، ترجمة: عابد خزندار، ١٠٣، ٢٠٠٣م، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص ٢٥.

(٩) تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، د. أمّنة يوسف، ط ٢، ٢٠١٥م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ١٠٣.

(١٠) المصطلح السرد، ص ٢٥.

ولا مالأً. قصد الجامع وراح يدرس في الحلقات التي يجدها أياً كان مذهبها، ثم تناهى إليه أمري ورأى إقبال التلاميذ علي فصار يجلس في حلقتي ويستمع إلى كلامي ثم استأذني أن ينتظم بها فأذنت له وأنا مشفقٌ عليه من صعوبة المسائل وغموض التأويل^(٤)، وهذه الوظيفة - التعريف بالشخصيات - من أهم وظائف الاسترجاع التي تكشف عن صفات مهمة في الشخصية قد لا يتسع المجال فيما بعد لذكرها.

وهناك نماذج من الاسترجاع ليست محدودة بزمن، لكن السياق يدلُّ على حدوثها قبل زمنٍ قصير، ومنها الاسترجاع الخارجي الذي برر فيه ابن عربي جلوسه في مجلس فخر النساء - مع نظام - بعد أن كان يجلس عند عتبة الباب "صرت أجلس في داخل مجلسها لا على عتبة بابها بشفاعه من زاهر. مرَّ بنا ذات درس ووجدني جالساً عند عتبة الباب فقال:

- هذا لا يليق. ادخل يا بُني فإنك من أولياء الله.

ثم يلتفت إلى نظام ويقول:

- ادني عليك جلبابك واجلسي في طرف الحجرة وهو في طرفها ولا جناح عليكما فإنكما في مجلس علم تحفه الملائكة^(٥).

كان لهذا الاسترجاع أثره في تنامي الأحداث، وفي التقارب الذي حدث بين ابن عربي ونظام بعد ذلك، فقد سمح هذا القرب ببداية حديث طويل بينهما، زاد فيه تعلق ابن عربي بنظام، وزاد تعلقها به.

أقصر من ذلك الاسترجاع، استرجاع آخر في قصة المخطوط، كان استرجاعاً لثلاث دقائق قضاها السلطان في المكتبة، مرّت كأنها دهر على المسئول عن تلك المكتبة لم يتكلم طيلة جولته القصيرة في المكتبة في الوقت الذي كان فيه الصدر الأعظم يحدثه في أمور لا علاقة لها بالمكتبة وهو لا يلتفت إليه ولا أحد يعلم إن كان يستمع حقاً أو أنه غارق في هواجسه الخاصة. فلم يكن يوماً لا اتفاقاً ولا اختلافاً. ولا يهمهم ولا يغمغم. صامتٌ كأنه تمثال يسير على قدمين^(٦)، وهذا الاسترجاع القصير سبقته لحظات وصفها المسئول نفسه

ملك لا يملك أبعد من أسوار مدينة واحدة^(١)، ونلاحظ أن السارد في هذين الاسترجاعين عمد إلى مقارنة حال جيدة بأخرى سيئة، فالمفارقة جليّة والبون شاسع بين قوة ابن سودكين عندما التقى شيخه، وضعفه وهو يحتضر ويستعد لمفارقة هذه الدنيا، بين ربيع أيامه في القاهرة وخريفها في دمشق، وكذلك حال علي بن عربي والد محبي الدين بين مرسية وإشبيلية، في مرسية كان وزيراً في مملكة صغيرة، ومهدد بالشنق على أسوارها، وفي إشبيلية أصبح كاتباً عند الخليفة، لكنه آمن وأحواله مستقرة، وهي وظيفة من وظائف الاسترجاع، يكشف فيها السارد "عن عمق التحوّل في حياة الشخصيات، وحركة التغيّر الناتجة عن حركة الزمن والمجتمع"^(٢).

والفارق بين هذين النموذجين، أن زمن الاسترجاع في قصة ابن سودكين كان بعيد المدى، بينما تبدّلت أحوال علي بن عربي في أقل من عام، كما أن الاسترجاع في قصة ابن سودكين داخلي لأن لاحق لزمن الحاضر السرد الذي بدأ بكتابة ابن عربي لسيرته في جبال أذربيجان، بيد أن المفارقة الزمنية في قصة ابن عربي سابقة لحاضر السرد لذلك هي من قبيل الاسترجاع الخارجي، وتشارك معها قصة ابن عربي منذ الولادة التي بدأ بها سيرته الذاتية، فهي سابقة لحاضر السرد وتنتمي إلى الاسترجاع الخارجي، والاسترجاع الخارجي له علاقة مباشرة بالمدى الزمني للحكاية "فكلما ضاق الزمن الروائي شغل الاسترجاع الخارجي حيناً أكبر"^(٣)، فابن عربي بدأ كتابته قصته - التي أودعها في المخطوط - في خلوته في أذربيجان، وهي الخلوة التي سبقت وفاته بسنوات قليلة؛ لذلك جاء الاسترجاع الخارجي فيها أكثر من الداخلي.

ومن نماذج الاسترجاع الخارجي التي جاءت في الرواية ولم يهدف فيها السارد إلى مقارنة أمرٍ بأمرٍ مخالف له، روايته لحياة تابعه بدر الحبشي في أسطر قليلة لخصت قصة رجل ليس فيها الكثير من التحوّلات والأحداث "كان نابهاً ولطيفاً وخدمياً. أعتقه أبو الفتوح بعد أن كبر خشية أن يموت فيرثه أبناؤه ولا يعتقدونه. فوجئ بذلك ولم يدر ماذا يفعل وهو لا يملك عملاً

(١) السابق، ص ٧٠.

(٢) الزمن في الرواية العربية، ص ١٩٢.

(٣) بناء الرواية، ص ٥٩.

(٤) موت صغير، ص ٢١٠.

(٥) السابق، ص ٣٣٢.

(٦) موت صغير، ص ٣٧٧.

الحرام. قلت: لا، قال: شكرا يا خالة.

فناديته: لم تسأل؟

قال: استأجرتني أبو بكر الحصار أنا وصبية آخرين نظوف على بيوت الأندلسيين الذين يفدون إلى مراكش ونسألهم هذا السؤال^(٢).

تلك الحادثة (المنسية) جاءت مفسرة لرؤيا غيرت مسار ابن عربي، وهذه فائدة من فوائد الاسترجاع المبتكرة؛ حين يجيء تفسيراً لرؤيا تغير مجرى الأحداث ومسار الشخصيات، وهذه الوظيفة للاسترجاع - حسب علمي - قليلة الحدوث في الروايات.

هذه الاسترجاعات مجتمعة داخلة في الاسترجاع الأساسي الذي بدأ بكتابة القصة في أدريجان، ولا أستثني منها سوى استرجاعات قصة المخطوط، وهذا النوع من الاسترجاعات (المتداخلة) ممكنة الحدوث؛ فبإمكان "مفارقة زمنية ما أن تظهر بمظهر حكاية أولى بالقياس إلى مفارقة زمنية أخرى تحملها؛ وفي الأعم يمكن اعتبار مجموع السياق حكاية أولى بالقياس إلى مفارقة زمنية ما"^(٣).

٢- الاستباق: هو "تصوير مستقبلي لحدثٍ سردي سياتي مفصلاً فيما بعد، إذ يقوم الراوي باستباق الحدث الرئيسي في السرد بأحداث أولية تمهد للآتي وتوهم للقارئ بالتنبؤ واستشراف ما يمكن حدوثه، أو يشير الراوي بإشارة زمنية أولية تعلن صراحةً عن حدث ما سوف يقع في السرد"^(٤).

على أن الحكاية بضمير المتكلم تلائم الاستشراف أكثر؛ بسبب طابعها الاستعادي المصرح به بالذات، والذي يرخّص للسارد في تلميحات إلى المستقبل، لا سيما إلى وضعه الراهن، لأن هذه التلميحات تشكل جزءاً من دوره نوعاً ما^(٥).

وعادةً ما يكون الاسترجاع في الروايات الحديثة أكثر من الاستباق، الذي تقل حاجة السارد إليه، لقلّة المواضع التي تتطلبه، وأول استباق يصادفنا في الرواية، ذلك الاستباق الخارجي الذي قدّمه السارد في سياق وصفه لعلي بن عربي وزير ابن مردنيش، وهذا الاستباق جاء قبل أوانه ليكشف عن

بأنها تعدل - في وطأتها - دهرًا، وهو ينتظر دخول السلطان إلى المكتبة وانتهاء جولته بسلام، ولا شك أن ذلك الوصف يدل على ثقل تلك الزيارة وخطورة ما تبعها من أحداث، حيث أمر السلطان المتهوّر بتفريغ كتب المكتبة، وأصبح المخطوط حينها في خطر، حتى جاءت فتوى شيخ الإسلام زكريا زاده بعزل السلطان، وبالتالي نجا المخطوط، ونجت المكتبة بأكملها من ذلك القرار الجائر، وهذا الاسترجاع - في رأيي - داخلي ينتمي للحكاية، لأنه لاحق لقصة المخطوط المتسلسلة عبر الزمن، ولاحق أيضاً للقصة التي بدأت في استانبول عام ١٠٢٦هـ/١٦١٧م، بخوف المسئول من التأخر في الوصول إلى المكتبة وبالتالي وصول السلطان قبله، ثم تداركه لهذا التأخر ووصوله قبل وقت وجيز من وصول السلطان.

وهناك استرجاع داخلي آخر في قصة المخطوط حدد صاحبه عدده بدقة؛ لأهمية ذلك العدد في مسار قصة المخطوط والحفاظ عليه، ومن هنا أيضاً جاءت أهمية هذا الاسترجاع "قطعت عهداً أن أنتظره حيث ودعته عند باب الرباط قبل ثلاثة وسبعين يوماً أحصيتها كما أحصي ركعات صلاتي وحبات مسبحتي. وضعت في يده زمام الجواد وصرّة المال وشدت على ساعده وأنا أحوج منه إلى من يشدّ على ساعدي. قلت له:

- كم أغبطك أن تقع عينك على كلمات الشيخ قبل عيني.
- لن يمضي شهران يا أمير إلا وهي بين يديك.
ومنذ ذلك اليوم وأنا جالس على كرسيي هذا الذي يكشف الرباط بأكمله"^(١).

ومن الاسترجاعات الخارجية المهمة في الرواية، تذكرُ مريم زوجة ابن عربي لحادثة وقعت قبل أربع سنوات نسيته ولم تتذكرها إلا عندما أخبرها زوجها بالرؤيا التي رأى فيها طائراً يخرج من العرش يأمره بالذهاب إلى مكة مع رجل من أهل مراكش "عندما وصلنا إلى مراكش قبل سنوات طرق بابنا صبي وأنت في المسجد وسألني: يا خالة، هل أنتم من الأندلس؟، قلت: أجل، قال: رأيتم في المنام أنكم تحجّون إلى بيت الله

(١) السابق، ص ٤٣٠.

(٢) موت صغير، ص ٢٥٨.

(٣) خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، جبرار جنيت، ترجمة: محمد معتمد وآخرون، ط ٢، ١٩٩٧م، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص ٦٠.

(٤) الزمن في الرواية العربية، ص ٢٠٧.

(٥) خطاب الحكاية، ص ٧٦.

الأولياء مثل الديون لا تؤخذ من الأطفال ولا تسقط بالتقادم. فكنتم أتذكرها بعد سنواتٍ في درس من الدروس وحولي تلاميذي، فأبكي بينهم فجأةً دون مقدمات" (٣).

هذا الاستباق يصعب تحديد نوعه، فهو استباق داخلي إذا كان تذكره للحادثة قد وقع بعد عودته من أذربيجان التي بدأ فيها تدوين الحكاية، وخارجي إن إذا كان زمن التذكّر قبل خلوته تلك، ومزيج منهما إذا اكتسب التذكّر صفة الديمومة؛ أي قبل تدوين الحكاية وبعدها، وهو الأرجح من وجهة نظري، لأن فائدة مثل هذا الاقتباس تتحقق في وصف شعورٍ عميقٍ دائم، يكثفه لتلك المرأة التي تعلّق قلبه بها منذ لحظة الولادة، وكانت توصيه - حتى لحظة افتراقها عنه - بأن يطهّر قلبه حتى يجده أوتاده الأربعة.

ومن الاستباقيات الخارجية ذلك التحول في شخصية عمه، من رجل يشرب الخمر ويفطر في نهار رمضان، إلى رجلٍ صالح يتحمّل مرارة المرض وجحود الأبناء وقسوتهم، حتى يرى بعد أذية ابنه له أنه يموت قبله بأربعين يوماً "اعتدل عمي في جلسته وهو يلهث، وسرعان ما تجمّعت في عينيه الدموع وارتعش وجهه ببكاءٍ قريب وراح يردّد على نفسه:

- أقرحت قلبي أقرح الله قلبك وعجل بموتك.

فمسح الشكاز على رأسه وبدنه وهو يقول له بصوتٍ هامس: - ارجع في قولك وادعُ له بالهداية فإن الله يهدي بدعاء الوالدين.

-لم يكن هذا دعاءً بل كشف.

ثم فاضت عيناه بدموعٍ غزيرة وهو يقول:

-يموت قلبي و أموت بعده بأربعين يوماً" (٤).

هذا الاستباق جاء به السارد ليطوي قصة عمه ويمهدّ لنهايتها، وهذا ما حدث، فبعد أن سافر ابن عربي مع أبيه إلى قرطبة، عادا ووجداه يحتضر "عدنا من قرطبة لنجد عمي عبد الله يُحتضر" (٥)، ولكنه لم يكشف لنا مآل ذلك الكشف (الاستباق) الذي ادعاه العمّ؛ بأن يموت ابنه ثم يلحق به بعد أربعين يوماً! ولعل الكشف (٦) الذي هو من صميم عقيدة المتصوفة، اسم آخر

جانب من شخصية والد محيي الدين، ذلك الرجل المهيب الذي لا يجرؤ على مواجهته أحد "لم يجرؤ أن يواجه أبي بتناقضاته إلا عبد الله القطن يوم دعوته للعشاء في بيتنا في إشبيلية بعد سنواتٍ طويلة من مغادرتنا ارض مرسية. كنت في السادسة عشرة من عمري" (١).

وفي موضع آخر يستبق السارد الأحداث، ويصف حال البيت الذي ولد وتربى فيه بعد رحيلهم من مرسية إلى إشبيلية "راقبت نقل المتاع إلى الركاب بنشوة وحملت منها ما استطعت حملة حتى أفرغنا البيت وأوصدنا الأبواب وراحت أمي نقش الفناء من التراب دون سبب سوى أنها تواسي بيتنا الذي سنخلفه وراءنا إلى غير رجعة قريبة.

عدت بعد عشرين سنة إلى مرسية لأبيع البيت فوجدت مقشّتها لا تزال لمقاة في المكان ذاته على حافة مجرى الماء الرخامي. تقصّفت أطرافها وتبيّست وتراكم عليها التراب ونمت بين فرجاتها الحشائش. كان والداي في ذلك الحين قد ماتا ولحيتي قد طالت وقد خلّعت عليّ خرقتان من خرق الأولياء" (٢).

هذا الاستباق لا قيمة ظاهرة له في تطوّر الأحداث وتناميها، إلا إذا افترضنا أن السارد أراد به أن يخبرنا بأن المكان يموت بموت أهله؛ فالبيت ظلّ كما هو لم يسكنه أحد، ومقشّة أمه التي أرادت أن تجمل بها البيت قبل رحيلهم عنه بقيت في مكانها ولم يحركها أحد، ثم تقصّفت أطرافها - كما تضعف أعضاء الإنسان وجوارحه بمرور الزمن - وتبيّست كما تتبيّس أوراق الشجر فتموت وتسقط؛ يربّح هذا المغزى أنه أشار إلى موت والديه في سياق هذا الوصف الاستباقي.

وفي استباقٍ آخر يحدثنا عن فراقه لفاطمة بنت المثنى، التي كانت أمّاً روحية له، فقد كانت معهم في القافلة التي غادرت مرسية، ثم افترقت عنهم بعزمها الذهاب إلى قرطبة، بينما هم ذاهبون إلى إشبيلية، يصف ذلك الافتراق، ثم يقفز إلى أزمنة لاحقة ليقس لنا أثره:

"ولأنني كنت طفلاً لا يعي آلام الفراق فقد احتفظت ذاكرتي بالموقف كما هو ثم تألمت منه لاحقاً بعدما كبرت. لأن آلام

(١) موت صغير، ص ١٧.

(٢) السابق، ص ٤١.

(٣) السابق، ص ٤٢، ٤٣.

(٤) موت صغير، ص ٨٨.

(٥) السابق، ص ١٢٩.

(٦) الكشف في اللغة رفع الحجاب، وفي الاصطلاح هو الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً (التعريفات، ص ١٩٣).

الاستباقات متفاوتة المدد الزمنية كذلك، فالأول والثاني تقدّر عدته بعشرات السنين، والثالث عدته أيام قلائل فقط، وفي المقابل هناك استباق لا يمكن تحديد زمنه ولو على سبيل التقريب، مثل تذّكر ابن عربي وداعه لفاطمة بنت المثنى أثناء جلوسه في الدرس مع تلاميذه.

وهذا التّوَجُّع يدل على أن السارد أفاد من هذه المفارقة الزمنية في تحديد مسار الشخصيات، كما كشف فيها عن خصائص (صوفيّة) اكتسبتها شخصية ابن عربي، بدأت ضبابية عند الفتى الصغير في المنتيار، واكتملت للشيخ بعد الأربعين في مرحلة مكة وما تلاها، فأصبحت تُكشف له الأمور - كما يعتقد - ويرى بأمر الله ما سوف يحدث.

المبحث الثالث: تقنيات زمن السرد في الرواية

لا تبدو المفارقات الزمنية كافية وحدها في ضبط مؤشر الزمن الروائي، فمع ما للاسترجاع والاستباق من أهمية كبرى ودور فاعل في ربط العمل الروائي، وسدّ الثغرات التي قد يتركها السرد وراءه، والتمهيد لما سيأتي من أحداث، إلا أن هناك تقنيات سردية تتعاقد مع تلك المفارقات، بل تستعين بالاسترجاع في بعض أنواعها، وتُعين السارد على أداء مهمته الحكائية دون إطالة مملة ولا إيجازٍ مخلّ، ومن أبرز تلك التقنيات ما يلي:

أولاً - **الخلاصة**: هي عبارة عن "سرد موجز يكون فيه زمن الخطاب أصغر بكثير من زمن الحكاية، وتتضمن البنى السردية تلخيصات لأحداث ووقائع جرت دون الخوض في تفاصيلها، فتجيء في مقاطع سردية أو إشارات"^(٤).

ومن أمثلة الخلاصة في الرواية حديث ابن عربي عن خلوة جبل المنتيار، فقد لخصّ في سطرين اثنين عمل أسبوع كامل "مكثنا في الجبل أسبوعاً حفظت فيها رسالة القشيري عن ظهر القلب. واختليت بنفسي طويلاً وابتهلت إلى الله أن يعينني على الطريق الذي جعله قدرتي"^(٥).

وفائدة مثل هذه الخلاصة أنها تسرّع السرد، وتختصر الحكاية بالتركيز على الأعمال المهمة التي من أجلها وُجدت هذه

للاستباق عند ابن عربي يقوم مقام الاستباق، ويحمل معانيه، يأتي به السارد هنا ليشير إلى علاقة المرید بشيخه، وهي علاقة ظلت أسرارها عالقة في ذهن الفتى ولم تكشف له إلا في سن الأربعين، وهو في مكة ثم أرسلني الشيخ وظلّ في صومعته. فاتجهت إلى إشبيلية صباح يوم بارد لم أشعر فيه بالبرد، معتزماً سفرًا طويلاً لم أشعر فيه بالتعب. ولما بلغت سفح الجبل أرسلت عيني إلى قمته حيث اختفت الصومعة. ودمعت عيناى على فراق شيخي فاستيقنت نفسي أنني أصبحت مريداً حقيقياً يبكيه فراق مراده. تضاعفت هيبة الشيخ وهو في المنتيار أضعاف هيبته في إشبيلية. ولم أعرف سر ذلك رغم أنني فكرت فيه كثيراً وابتهلت إلى الله أن يكشف لي فلم يفعل إلا بعد سنوات طويلة وأنا في مكة"^(١).

غاب الاستباق عن صفحات الرواية بعد ذلك ولم يظهر إلا في مكة، حين رأى ابن عربي موت ابنته زينب قبل وصولها - في تابوت - بأيام، وسمّى استباقه ذلك كشافاً "لم تصعقني المفاجأة. فقد كشف الله لي موتها في منامي وقد تجاوزا ينبع بيومين. فجّهزت حنوطها وكفنها وجست انتظر وصولهم"^(٢).

هذا الكشف (الاستباق) كان سبباً في معرفته بموت مريم أيضاً بعد افتراقه عنها ورحيلها إلى بجاية بسنوات "ولم أر مريم بعد ذلك إلا في المنام. عادت إلى بجاية وأقامت مع أهلها ست عشرة سنة ثم ماتت وجاءني من يعزيني بها بعد أشهر طويلة وأنا في ملطية رغم أن الله كشف لي موتها في حينه قبل وصول الناعي. شعرت بألم في ضلعي وأنا نائمٌ دون جهد فعرفت أنها ماتت"^(٣).

ونلاحظ أن الاستباق في الرواية كانت مدده متفاوتة، منها ما تمّ تحديد زمنه بدقة، مثل عودته إلى منزل الطفولة في مرسية بعد (عشرين عاماً)، وموت مريم بعد ستة عشر عاماً من رحيلها عن زوجها محيي الدين، ومنها ما تمّ تحديده بحقبة أو مرحلة، مثل استباق جبل المنتيار الذي حدد مرحلة وجوده في مكة، ومنها ما تمّ تحديده بمرحلة في طريق، مثل موت زينب بعد أن تجاوزت القافلة ينبع في طريقها إلى مكة بيومين، وهذه

(١) موت صغير، ص ٩٣.

(٢) السابق، ص ٣٠٦.

(٣) السابق، ص ٣١٦.

(٤) الزمن في الرواية العربية، ص ٢٢٠.

(٥) موت صغير، ص ٩٣.

الخلوات.

ومنها كذلك تلخيص الفترة التي قضاها ابن عربي بصحبة الشكاز عند عمه عبد الله وهو في آخر أيامه "ابتلت عينا أبي وأوشك أن يبكي. ضم كف عمي بيمينه وقبلها ثم قام وقال: - أتريد شيئاً؟

حرّك عمي رأسه بالنفي. التفت أبي جهتي وقال:

- امكث أنت مع عمك فلا خادم عنده.

ولزمت بيته أنا والشكاز وأبي يغدو علينا ويروح ستة عشر يوماً حتى حانت منيته^(١).

وعندما انغمس ابن عربي في اللهو مع رفاقه في مزرعة فريدريك لخص تلك الأيام بقوله: "مرّ اثنا عشر يوماً لم تطأ قدماي فيها إشبيلية وأهلي يظنونني معتزلاً في المنتيار مع شيخ ما. يذهب الحريري ويعود حاملاً أخباري المزيفة إلى أهلي فيحظونه طعاماً لذيذاً يُعده سلوم لتلاميذ وشيوخ في المنتيار فيأكلها ندامى وراقصون في بهشية فريدريك"^(٢).

فائدة هذا التلخيص أنه يصور رتبة أيام اللهو، فهي متشابهة ولا شيء فيها سوى الأكل والشرب والرقص، هي والعدم سواء؛ لذلك سرعان ما ملها ابن عربي وغادرها.

وقد تمتدّ الخلاصة لسنوات أربع، وهي السنوات التي جاءت بعد عودة ابن عربي من ضلاله في بهشية فريدريك، وهذا التلخيص للسنوات الأربع قفز بالسرد سنوات شهدت تغير ابن عربي الذي ألف الأسفار والخلوات وركونه إلى الدعة والاستقرار بين زوجة ووظيفة "انطوت أربع سنوات حدث فيها ما لم يخطر لي ببال: صرت كاتباً عند الخليفة وزوجاً لمريم بنت عبدون"^(٣).

هذه السنوات فعل فيها ابن عربي ما كان يظنّ أنه سيتجنبه طيلة حياته، كان ينأى بنفسه عن العمل في بلاط الأمراء والخلفاء، وينتقد والده الذي قضى عمره في تلك الأماكن، وكان زاهداً - بحكم تصوّفه - بالنساء، لكن انتهى به الأمر كما يقول "جلساً للخليفة في النهار ولزوجتي في الليل، لا مقابر ولا صوفية. وما زلت حبيساً لأسوار إشبيلية وقد زادت قيودي

قيدين آخرين"^(٤)، وهذه الخلاصة التي اختصرت زمناً طويلاً أظهرت التحوّل الذي حدث في شخصية ابن عربي، فهي مرحلة متوازنة وقعت بعد مرحلتين متنافرتين، حياة لهو وشرب، وحياة في المقابر وبين القبور، هذا التحوّل أعاد لابن عربي توازنه المفقود، وجاءت الخلاصة لتعبّر عن هذا التوازن.

وهناك خلاصة ليس لها زمن محدد، يصفها بأسابيع دون أن يحدد عددها "قضيت في بجاية أسابيع لا أنقطع فيها عن درس أبي مدين"^(٥) هذه الأسابيع ليس فيها سوى الترقّب، فقد سافر إلى الشيخ في بجاية طمعاً في أن يكون وتده الثاني في أفريقية، لكن دون فائدة، فقد مرّت تلك الأسابيع وتيقّن أنه ليس الودت المنشود فعاد إلى إشبيلية حزيناً.

ثم نجده في موضع آخر يذكر خلاصة أسابيع قضاها مع رفاقه - من الأولياء وأهل الطريق - في فاس بعد سفره إليها "سرعان ما شعر بي الأولياء وأهل الطريق. يقدون إلى النزل ويسألون عني ابتسموا وابتسمت، وعرفوا شأني وعرفت. خرج بي تسعة منهم إلى بستان ابن حيون في اجتماع ليس فيه إلا وليّ مجتبي قد بلغ في الطريق مقاماً عالياً. خلونا ببعضنا أسابيع لم نحصها. طلعت علينا شمسٌ غير شمس العالمين، وأضاء ليلينا بدرٌ مكتملٌ لا ينقص طيلة الشهر"^(٦).

نلاحظ في هذه الخلاصة أن الزمن (الطبيعي) هنا لا معنى له، بدليل أن تلك الأسابيع مرّت دون إحصاء، والشمس فيها تختلف عن الشمس التي نعرفها، والقمر فيها مكتمل طيلة تلك الأسابيع، وهذا يحيلنا إلى زمن خاص بالمتصوفة يسمى (الزمن الصوفي)، خصائصه تختلف عن الزمن الطبيعي، وتقترب كثيراً من الزمن النفسي، فهو زمن خاص يفقد فيه من يعيش به إحساسه بالزمن الطبيعي الخارجي، وقد ورد هذا في غير موضع من الرواية من خلال خلاصات جاء بها السارد للتعريف بذلك الزمن، ومنها انعزاله في المقبرة بعد عودته من مزرعة فريدريك لمدة أربعة أيام "تقولون إنها أربعة أيام في حسابكم. أما في حساب خلوتي فقد كانت ألف ألف دعاء. هذا هو زمني، وشتان بينه وبين زمنكم"^(٧).

(٥) السابق، ص ١٩٤.

(٦) السابق، ص ١٧٤.

(٧) موت صغير، ص ١٥٥.

(١) السابق، ص ١٣٠.

(٢) السابق، ص ١٤٢.

(٣) موت صغير، ص ١٥٧.

(٤) السابق نفسه.

هي وجهي فرأت سنوات من الشوق والخوف والوجل والحب المؤجل حتى هذه اللحظة"^(٥)، وهكذا استأثرت قصته مع نظام بالزمن النفسي، كما استأثرت خلواته مع شيوخه ورفاقه ومريديه بالزمن الصوفي.

أما في قصة المخطوط فنجد الزمن النفسي في قصة مسؤول المكتبة مع السلطان، فقد وصف انتظاره الطويل لدخول السلطان للمكتبة، بلحظات كالدهر، لثقلها على نفسه من جهة، وبسببه خوفه على المخطوط وكتب المكتبة النفيسة من قرارات هذا السلطان المتهور من جهة أخرى "أُطلّ من الباب أحد موظفي التشريفات وأشار لي بإيماءة تعني قرب دخول السلطان. فوقفت في مكاني لحظات كأنها دهر حتى أُطلّ بوجهه الشاحب النحيل يتبعه الآغوات والحرس"^(٦)، هذا الزمن النفسي كما لاحظنا في الموقف الصعب على مسؤول المكتبة، وفي أزمنة ابن عربي مع نظام التي لخصت لحظات من الأمل والألم تجعلنا ندرك أن هذا الزمن، "زمنٌ خاص لا يقبل القياس لأنه لا مرجع له سوى صاحبه، وصاحبه يختلف في تقديره لأنه يشعر به شعوراً غير متجانس، ولا توجد لحظة فيه تساوى اللحظة الأخرى، فهناك اللحظة المشرقة المليئة بالنشوة التي تحتوي على أقدار العمر كله وهناك السنوات الطويلة الفارغة التي تمرّ رتيبة خاوية كأنها عدم"^(٧).

ثانياً - الحذف: ويسمى أيضاً القطع، وذلك "عندما يكون جزء من القصة مسكوتاً عنه في السرد كلياً، أو مشاراً إليه فقط بعبارات زمنية تدل على موضع الفراغ الحكائي من قبيل (ومرّت بضعة أسابيع) .. أو (مضت سنتان .. الخ)، ومن هذه الناحية فالحذف أو الإسقاط يعتبر وسيلة نموذجية لتسريع السرد"^(٨).

يقول عنه بوتور: "نحن لا نعيش الزمن كأنه استمرار إلا في بعض الأوقات؛ ومن حين إلى آخر تأتي القصة على

هذا الزمن ظل ابن عربي يحنّ إليه، ويحاول العودة إلى عوالمه متى ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وتحقق له ذلك - في إشبيلية أيضاً - عندما عاد إلى خلوته في المقابر للتخلص من ضيق كدر عليه صفو أيامه "عدت إليها مرةً أخرى لعلّي أهدب هذه الروح حتى تكون أهلاً لجذبة الله. كلما غابت الشمس دخلتها مثل ميتٍ يمشي على قدميه وجلست فيها وحدي حتى يقترب الفجر ... ومرّت أشهرٌ ستة كأنها ستة أيامٍ من لذة عزلي وسكينة خلوتي"^(٩).

يقترّب من هذا الزمن وينقطع معه (الزمن النفسي)، فالأنس في الخلوات سببه ذلك الانسراح الذي ينقل أصحابه من عالمهم الأرضي إلى عالم سماوي، ويخرج بهم من زمنٍ إلى زمن، وهذا ما حدث لابن عربي في خلوته بنظام - بحضور عمته فخر النساء - وهي خلوة تختلف عن خلوات المقابر والجبال مع المريدين والأولياء، يلخصها ويحدد مدتها بقوله "انشغلت بي العجوز المسكينة فأصبحت أقرأ عليها كتاباً قد قرأتها عليها من قبل فلا تدري لأنها نسيت. وأغمر نظام وتغمرني. فنبدأ كتاباً جديداً نعلم أنه سيستغرقنا أسبوعاً من الزمان؛ أسبوعاً من التحليق في جبين نظام الوضاء، مثل طائرٍ ضائع؛ أسبوعاً من التأمل في حسنها الأصفهانيّ الأصيل مثل شاعر مبتدئ"^(١٠)، هذا الزمن لو بقي على تحديده الأول لكان من قبيل الزمن الطبيعي، لكن التحليق والتأمل جذباه إلى الزمن النفسي.

عاد الزمن النفسي مرةً أخرى عندما تقدم لخطبة نظام من أبيها، وكان يتربّع الردّ "مضى أسبوعان وأنا أمشي على غيمة الأمل هذه ولم يبلغني ردّ"^(١١)، وعندما تبدد هذا الأمل، حلّ مكانه القلق، وتلوّنت أسابيعه بلونٍ قاتم "أسابيع تليها أسابيع والقلق هو محرّك كل ساكن ومسكّن كل متحرك في حياتي التي أضحت شائكةً وقائمة"^(١٢).

وعندما وجدها في بغداد وفتحت له باب الرباط، رأت في وجهه خلاصة تلك السنوات التي قضاها بعيداً عنها "تأملت

(١) السابق، ص ١٧٨.

(٢) السابق، ص ٣١٣.

(٣) السابق، ص ٣٥٠.

(٤) السابق، ص ٣٥٦.

(٥) موت صغير، ص ٤٢٧.

(٦) السابق، ص ٣٧٧.

(٧) مسائل في الإبداع والتصور، جمال عبد الملك (ابن خلدون)، ط ١،

١٩٧٢م، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، ص ١٦٥.

(٨) بنية الشكل الروائي، ص ١٥٦.

أذربيجان "مرّ عامٌ لم يرني فيه أحدٌ سوى الراعي الأذري الذي يجلب لي الطعام والماء"^(٦).

ويبلغ الحذف في بعض المواضع ثلاث سنوات، وكان ذلك بعد رحيل ابن عربي عن دمشق "ضاق بي المكان وقررت أن أرحل. لا شيء يصرف عني همومي ويخفف عني شجوني إلا السفر. لم أعلم أن قراري العشوائي بالرحيل فتح عليّ تيهاً استمر ثلاث سنوات"^(٧)، وتكرر الحذف مرة أخرى وهو في بغداد، لكن لمدة أقل "على هذه الحال من القلق الذي يعلو بي ويهبط دخلت سنتي الثالثة في بغداد"^(٨)، سبقها حذف في نفس المكان لمدة عام "مرّت سنتي الأولى في بغداد وأنا على قيد الفتنة"^(٩).

ونلاحظ أنه مواطن الحذف المعلن أو المحدد زادت في الثلث الأخير من الرواية، لأن تلك السنوات ليس فيها من الأحداث ما يستحق الذكر، فضلاً عن رغبة السارد بتسريع السرد، وربما دفعته خشيته من أن يطول زمن الحكاية إلى مثل هذا التسارع، خاصةً بعد أن سار في ثلثي الرواية (تقريباً) ببطء، وتوقّف عند بعض المحطات المهمة بحب (محطة مكة على سبيل المثال). ثالثاً - **المشهد**: هو "المقطع الحوارية الذي يأتي في كثير من الروايات في تضاعيف السرد"^(١٠)، وهو من تقنيات (تعطيل السرد)، إذ يقوم به السارد "فيحدث نوعاً من التوازي بين زمن القصة وزمن الخطاب ويتساوى المقطع التخيلي مع المقطع السردية في عين القارئ، وهكذا نصبح إزاء حركة زمنية متطابقة تتبى بتعطيل الزمن في الرواية وتعلن عن تعليقه إلى حين انتهاء المشهد واستعادة السرد لتوتيرته الطبيعية"^(١١).

والرواية مليئة بالمشاهد الحوارية التي قامت بهذا الدور، ومن أهمها حوار ابن عربي مع نظام في أكثر من موضع في الرواية، كالحوار الذي دار بينهما عندما رحلت مريم وذهب ابن عربي إلى الكعبة وطاف حولها كثيراً حتى نسي نفسه، ودخل يوم طواف النساء وهو على تلك الحال^(١٢)، استمر حوارهما في

دفعات، ولكننا بين هذه الأمواج من الدفعات نقفز قفزات كبيرة على غير هدى منّا"^(١).

من نماذج الحذف في الرواية ما حكاه ابن عربي عن تدهور صحة عمّه "احدودب ظهره فجأة في ظرف أشهر وأصبح يمشي منحنياً انحناءً أقرب إلى الركوع"^(٢)، هذا التغيّر المفجئ حدث في أشهر محذوفة من السرد، لا نعلم عددها ولا ما حوته من أحداث، لذلك نستنتج أن سبب حذفها الوحيد تسريع السرد. وفي موضع آخر يتحدّث عن رفض والده مرافقته له إلى مراكش، ويحذف (شهرين) تسريعاً للسرد، في هذا الموقف الذي كان توطئةً لرحلته مع والده - بعد ذلك - إلى قرطبة "انكشيت أسوار إشبيلية في عيني حتى غدت سجناً حجرياً هائلاً لا فكاك منه. بلغت الخامسة عشرة دون أن أرى من هذا العالم الواسع سوى مرسية وإشبيلية. أدمعت عينايا أمام أبي فرق قلبه وقال:

- لا تأس يا بني. إن عدت من سفري آخذك إلى قرطبة.

عاد بعد شهرين ومعه صندوق كبير من حجر الشبّ قال إن صديقاً له من التجار أوصاه به. لا أدري كيف وجد في المركب مكاناً لصندوق يبلغ ضعفي حجمي ولم يجد مكاناً لي"^(٣).

يحدد مدة الحذف في مكان آخر من الرواية بأسبوعين، في نهاية رحلته إلى أبي مدين في بجاية "كفكفت دموعي ورحت أجمع متاعي استعداداً للرحيل في الصباح، سواءً وجدت قافلة أم لم أجد. وبعد أسبوعين كنت في إشبيلية مرة أخرى"^(٤)، هذا الحذف فرضه الحزن الذي اعتراه والخيبة التي أناخت به عندما أخبره أبو مدين أنه ليس وتده.

ثم يحذف عاماً كاملاً قضاه ساكناً مطمئناً في دمشق، وهو حذف يتناسب مع ذلك السكون وتلك الراحة التي وجدها هناك، فالأيام السعيدة تمضي سريعة، وهي الصفة التي وصف بها ذلك العام "على مثل هذه الحال مرّ عامٌ سريعاً"^(٥)، يتكرر حذف العام بعد ذلك في خلوته التي كتب فيها سيرته في جبال

(١) بحوث في الرواية الجديدة، ميشال بوتور، ت: فريد أنطونوس، ط٣، ١٩٨٦م، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ص ١٠٠.

(٢) موت صغير، ص ٨٦.

(٣) السابق، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٤) السابق، ص ١٩٥.

(٥) السابق، ص ٣٧٢.

(٦) موت صغير، ص ٥٤٩.

(٧) السابق، ص ٣٨٥.

(٨) السابق، ص ٤٢١.

(٩) السابق، ص ٤١٤.

(١٠) بنية النص السردية، ص ٧٨.

(١١) بنية الشكل الروائي، ص ١٧٤.

(١٢) موت صغير، ص ٣١٦-٣١٨.

وهناك نماذج أخرى للمشاهد الحوارية؛ منها ما كان مع (شبح) وتده الثاني الذي أخرجه من السجن في القاهرة^(٤)، ومع سلطان ملطية واسحاق وأمير المجلس، وهو حوارٌ دار حول نزاع السلطان مع الأيوبيين، واستعانت به بإسحاق لتجنيد الفتان وكسب المؤيدين، ومحاولة ابن عربي ثني السلطان عن تلك الحرب^(٥)، فقد استغرق عدّة صفحات، وكان مجيئه مع الحوار الذي سبقه لتوضيح موقف أو رأي أو تحديد مسار، وليست كمشاهد نظام الحوارية التي كانت للقلب والروح، أقرب منها للعقل والجوانب الوظيفية التي يجيء من أجلها الحوار في الأعمال الروائية غالباً.

الخاتمة:

في ختام هذا الرصد لبنية الزمن ومفاراتها وتقنياتها في رواية (موت صغير) للروائي محمد حسن علوان، توصلت إلى النتائج التالية:

- هذه الرواية من الروايات التي طغى فيها عنصر الزمن على بقية العناصر، واستحق أن يُدرس لتمييزه فيها ووفرتة.
- ساهمت شخصية محيي الدين بن عربي في هذا الغنى الزمني، فهي تاريخية من جانب، وعاشت حياة حافلة بالأحداث والوقائع من جانب آخر.
- عمل الكاتب على نسج حكايتين في وقتٍ واحد، تداخلتا في بداية الرواية ثم حدث التناوب في أكثر من (خمسة) وثلاثين صفحة) من الرواية، ثم عادتا للتداخل والتناوب معاً حتى نهايتها.
- أفاد الكاتب من تقنية الاسترجاع، وكانت لها الغلبة على مفارقة الاستباق أو الاستشراف في الرواية.
- استحوذ الاسترجاع الخارجي على مفارقة الاسترجاع أكثر من الداخلي، بسبب ضيق زمن الرواية الذي بدأ من خلوته في جبال أذربيجان حتى وفاته، فكلما ضاق حيز الزمن في الرواية ظهر الاسترجاع الخارجي أكثر.
- ظهر الاستباق في الجزء الأول من الرواية بمسماه المعهود ووظائفه المعتادة، ثم صبغ بصبغة صوفية خالصة، وصار يسمى بـ(الكشف)، وهو استباق خاص يعني رفع الحجاب، وهو بهذا المعنى استباقٌ لا يد لصاحبه فيه، يكشف

اليوم التالي عندما التقى بها في بيت فخر النساء، وكان يدور حول ذلك الطواف وما حدث به^(١)، واستغرق الحوار عدّة صفحات، ثم عاد الحوار بعد توسط الشيخ زاهر له بالجلوس في مجلس فخر النساء وليس عند عتبة كما اعتاد، وبدأ الحوار حينها قابلاً للتمدد على صفحات أكثر، لولا خشيتهما أن تلاحظ فخر النساء حديثهما الدافئ والهامس^(٢).

حتى عندما تلكأت نظام في الردّ على خطبته لها، التقاها في الزقاق الأخير الذي ينتهي ببيتها ودار بينهما حوار، بدأه بقوله:

"طال انتظاري يا نظام.

لم تلتفت ناحيتي. أجابت بهدوء وسكينة وكأنها قد استعدت لسؤالي مسبقاً:

- ماذا لو طال؟
- يغلي قلبي بالأشواق وتضطرب روحي فلا أسكن ولا أنام.
- صبابةً تطهر الروح خيرٌ من نكاح يقضي الوطر.
- لا حبك وطرٌ فيقضى، ولا حبي نازٌ فنُطفأ.
- إن كان حبك لي قد بلغ تمامه فما حاجتك لنكاحي إن لم يكن ثمة متسع لزيادة؟
- ثم التفتت جهتي وقالت وهي تحديق في عيني بحدة:
- ... وإن كان لم يبلغ تمامه فلا حاجة لي بنكاحٍ ذي حبٍ منقوص.
- أخافتني نظرتها الحادة فتهدج صوتي حتى صار أقرب للبكاء وأنا أقول:
- يا نظام حبي لك أقدمُ مني ومنك. قدرٌ كُتب علينا وسيبقى بعدنا. لم يبدأ صغيراً فكبر. ولا هو ينقص بعد تمام، خلُق تاماً وحلٌ في قلبي مثل الفطرة"^(٣).

هذا الحوار نستدل به على أن السارد وجد في هذه الوقفات الحوارية ما يطفىئ ظمأ شاعريته، وهو الشاعر والكاتب الذي اتخذت أعماله الروائية السابقة طابعاً رومانسياً، وكان يصعب عليه الخلاص منه حتى وإن كانت الرواية تتناول سيرة ولي صوفي، هذا الانحياز للشاعرية أوقعه في مأزق ضيق المساحة فيما بعد، فجاءت تقنيات تسريع السرد (التلخيص والحذف) لديه وافرةً في المراحل التي تلت مرحلة مكة.

(٤) موت صغير، ص ٤٠٢.

(٥) السابق، ص ٥٠٨-٥١١.

(١) موت صغير، ص ٣٢١-٣٢٥.

(٢) السابق، ص ٣٣٣-٣٣٥.

(٣) السابق، ص ٣٥٠، ٣٥١.

- الله به ما يشاء لمن يشاء.
- اعتنى الكاتب بالتقنيات السردية في الرواية، فجاءت الخلاصة في مقدمة تقنيات (تسريع السرد) متفوقة على الحذف، وهذا يدل على أهميتها في تسريع السرد، ودورها في تجاوز الأزمنة الميَّتة.
- اضطر السارد إلى الحذف كثيراً في الثلث الأخير من الرواية، فبعد أن كان يحذف الأسابيع والشهور في بداية الرواية ومنتصفها، أصبح يحذف الأعوام في نهايتها، وسبب ذلك بطء السرد في أجزاء من الرواية، خاصةً المرحلة التي قضاها ابن عربي في مكة المكرمة.
- انحاز الكاتب إلى شاعريته وطابعه الرومانسي في قصة ابن عربي مع نظام ابنة زاهر، وظهر هذا الانحياز في المشاهد الحوارية التي قامت بتعطيل السرد، لكنها أغنت الرواية من الجانبين الروحي والعاطفي.
- وفي الختام أسأل الله العليّ القدير أن يكون فيما قدمته في هذه الدراسة بعض ما ينشده القارئ، ويثري مكتبة النقد الأدبي، والله وليّ التوفيق.
- المصادر والمراجع:**
- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١٥، ٢٠٠٢م، دار العلم للملايين، بيروت.
- بحوث في الرواية الجديدة، ميشال بوتور، ت: فريد أنطونيوس، ط٣، ١٩٨٦م، منشورات عويدات، بيروت - باريس.
- بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، سيزا قاسم، ٢٠٠٤، هيئة الكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة.
- بنية الزمن في رواية ١٩١٩، دراسة في تقنيات السرد، د. عبد الباسط سلامة هيكل، جامعة الأزهر، مجلة قطاع كليات اللغة العربية والشعب المناظر لها، مجلد ١١، عدد ١، ٢٠١٧.
- بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ط١، ١٩٩٠م، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- بنية النص السردية من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحداني، ط١، ١٩٩١م، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- تحليل الخطاب الروائي (الزمن - السرد - التبئير)، سعيد يقطين، ط٣، ١٩٩٧، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، د. آمنة يوسف، ط٢، ٢٠١٥م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
- التعريفات، أبو الحسن الجرجاني، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط٢، ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، جبرار جنيت، ترجمة: محمد معتمد وآخرون، ط٢، ١٩٩٧م، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- الزمان والسرد (الحبكة والسرد التاريخي) الجزء الأول، بول ريكور، ت: سعيد الغانمي وفلاح رحيم، ط١، ٢٠٠٦م، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت.
- الزمن والرواية، أ.أ. مندلاو، ت: بكر عباس، مراجعة: إحسان عباس، ط١، ١٩٩٧م، دار صادر، بيروت.
- الزمن في الرواية العربية، مها القصرائي، ٢٠٠٢م، أطروحة دكتوراه من الجامعة الأردنية، عمان.
- طرائق تحليل السرد الأدبي، رولان بارت وآخرون، ط١، ١٩٩٢م، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط.
- في نظرية الرواية، د. عبد الملك مرتاض، ط١، ديسمبر ١٩٩٨م، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- اللغة الثانية (في إشكاليات المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي)، فاضل ثامر، ط١، ١٩٩٤م، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- مسائل في الإبداع والتصور، جمال عبد الملك (ابن خلدون)، ط١، ١٩٧٢م، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم.
- المصطلح السردية، جيرالد برنس، ترجمة: عابد خزندار، ط١، ٢٠٠٣م، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- موت صغير، محمد حسن علوان، ط١، ٢٠١٦، دار الساقي، بيروت.
- نظرية الرواية (دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة)، د. السيد إبراهيم، ط١، ١٩٩٨م، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.

The Structure of Time in A Small Death Novel
by
Muhammad Hassan Alwan

Sulaiman Salem Al Senani
Assistant Professor of Modern Literature
Department of Arabic Language
Faculty of Arts and Humanities
Taibah University, Medina

Abstract. the Arabic novel has recently received a large share of critical studies, as some considered it (The New Arab Divan), in a clear indication of its superiority over poetry, which was the Divan of the Arabs and their very first art, and this saying, whether we disagree or agree with it, is supported by several factors, perhaps the most important of them, the popularity that the art of fiction has in the whole world, the serious issues that address it, and the studies that accompanied and helped that popularity, and from here - too - came the idea of the (Booker Prize) for the novel, which began in the United Kingdom in the late sixties, and branched into several awards, including The Arab Booker Prize, which was established in the United Arab Emirates in 2007, and the novel (A Small Death) by Muhammad Hassan Alwan won it, which is certainly not the main reason that motivated me to choose this novel as the subject of this research, with all its paradoxes and techniques, it was evident in the beginning of a true story in terms of origin, as it is the biography of an Arab philosopher, and an imagined one for a manuscript that tells the story of this philosopher, and the chronological path of that manuscript up to the present day. The first in this study, after it was preceded by an introduction to the concept of time in the novel, and an introduction presented important research questions and previous studies, and in the second topic it dealt with the most prominent temporal paradoxes, by monitoring the points of retrieval and anticipation in the novel, and in the third topic I talked about the techniques of narration time in the novel , Which was represented by (the summary and the deletion), which are two of the elements of accelerating the narration, and (the scene), which is one of the elements of delaying the timeliness of narration present in the novel, and then concluded with the most prominent findings and recommendations reached by the study.

Keywords: structure, time, a small death, the novel, Muhammad Hassan Alwan